

**امرؤ القيس بن حُجر:**  
**رحلته إلى الشرق أو إلى الغرب؟**  
**"القسم الأول"**

د. ليلي توفيق العمري

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية  
الجامعة الهاشمية

يذهب بعض الجغرافيين<sup>(١)</sup> إلى أن رحلة امرئ القيس بن حُجر - التي رافقه فيها عمرو بن قميئة - كانت إلى الهند ولم تكن إلى القسطنطينية عاصمة بلاد الروم، ويستدلون على زعمهم هذا من تحديد موقع بعض المواضع التي وردت في شعر ابن قميئة رفيقه في السفر.

وللوصول إلى الحقيقة لا بد من معرفة الطريق الذي سلكه امرؤ القيس في هذه الرحلة، والذي انتهى به إلى الموضع الذي خط فيه قدميه، ومن ثم كانت له فيه أخبار وأشعار ونهاية حياة. هذه الحقيقة - التي تنازع جوهرها وتجادب أطرافها ثلاثة محاور يأخذ بعضها برقاب بعض، يشده حيناً، ويؤزره حيناً آخر - تشكل الأساس الذي يقوم عليه هذا البحث.

فأول هذه المحاور: يعتمد على ما ذكرته كتب الأدب العام بخاصة، وكتب الأخبار والتاريخ عن سبب رحلة امرئ القيس، والديار التي مرَّ بها في طريقه إلى قيصر ملك الروم.

وثانيها: يحتج بما يزودنا به ديوانا امرئ القيس وعمرو بن قميئة من أشعار تبين بعض المواضع التي سلكاها وجابا خلالها أو مرَّ بها، بحيث تقطع في محتواها ومضمونها بمسيرهما إلى ملك الروم، وكذلك بما تزودنا به كتب الأدب العام والتاريخ والطبقات والتراجم من أحوال وأخبار مرافقة لشعر هذين الشاعرين الذي قيل في هذه الرحلة، تنتهي بنا إلى الغاية التي قصدنا إثباتها، وأردنا الوصول إليها.

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك في موضعه.

وتالّثها: يقوم على ما ورد في كتب الجغرافيين من أقوال تشير إلى اختلافهم، أو اتفاقهم في تعيين موقع بعض المواضع التي سلكها امرؤ القيس وعمرو بن قميئة في رحلتها إلى قيصر، والخروج منها برأي واضح قطع العلماء فيه القول، وفصلوا فيه الخلاف بينهم.

\* \* \*

(١)

يذكر صاحب الأغاني<sup>(١)</sup> في خبر يرده إلى ابن الكلبي أن حُجراً لم يكن راضياً عن ابنه امرئ القيس، فطرده من عنده "والى الأبا يقيم معه أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكتب وبكر بن وائل؛ فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد، أقام فذبح لمن معه في كل يوم؛ وخرج إلى الصيد فتصيّد، ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قيانه، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره". واستمر امرؤ القيس في هذه

---

(١) ٩: ٨٧، وانظر الكامل في التاريخ ١: ٥١٥-٥١٦، نشوة الطرب ١: ٢٥٢، قراءة ثانية في شعر امرئ القيس: ٩٧، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨-١٠٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٢، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧٠.

وقد تحدّث عن رحلة امرئ القيس إلى قيصر عدد من الباحثين والمؤلفين العرب المحدثين، في مؤلفات ودراسات متخصصة عرضت لحياته وشعره؛ منها: امرؤ القيس لسليم الجندي: ١٢-٢٥، امرؤ القيس حياته وشعره: ٧٥-١٠٣، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١٠-١١، ١٦، ١٧-٢٢، امرؤ القيس الملك الضليل: ٢١-٣٥، ٤١-٤٤، امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٨٤-٣٩٤، امرؤ القيس يقف على المسرح: ٣٨-٤٢، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧١-٢٩٤، الشوامخ امرؤ القيس: ١٦-٢١، علاء الدين ومسرحيته الشعرية: امرؤ القيس بن حُجْر: ١٧-٢٢، الملك الضليل امرؤ القيس: ١٤٥-١٥٠.

الحياة العابثة حتى "أتاه خبر أبيه ومقتله<sup>(١)</sup> وهو بدمون<sup>(٢)</sup> من أرض اليمن، أتاه به رجلاً من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصّاف. فلما أتاه بذلك قال<sup>(٣)</sup>:

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيَّ دَمُونٌ      دَمُونٌ إِنَّا مَعْشَرٌ يَمَانُونَ  
وَإِنَّا لِأَهْلِهَآ مُحِبُّونَ

ثم قال: ضيَّعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحوا اليوم، ولا سكر غداً، اليومَ خمر، وغداً أمر، فذهبت مثلاً. ثم قال<sup>(٤)</sup>:

خَلِيلِي لَا فِي الْيَوْمِ مَصْنَعِي لِشَارِبٍ      وَلَا فِي غَدٍ إِذْ ذَاكَ مَا كَانَ يُشْرَبُ

---

(١) انظر خبر مقتله في الشعر والشعراء: ٥٠-٥١، ٥٧-٥٨، الأغاني ٩: ٨٢-٨٦، الكامل في التاريخ ١: ٥١٤-٥١٥، نشوة الطرب ١: ٢٤٦-٢٤٨، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٤-٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٢-٥٧٣، امرؤ القيس حياته وشعره: ٤٤-٤٩، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ٩-١٠، امرؤ القيس الملك الضليل: ٢١-٢٣، امرؤ القيس يقف على المسرح: ٣٩، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧١، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧٠.

(٢) دَمُونٌ: من حصون حَضْرَمَوْت لحمير، وفي رواية أن دَمُونٌ: قرأ للصّدْف بحضرموت، انظر معجم ما استعجم: ٥٥٧. وفي نشوة الطرب ١: ٢٤٨ أن دَمُونٌ من أرض كندة.

(٣) انظر ديوان امرؤ القيس: ٣٤١، ويروى: "عَلَيْنَا دَمُونٌ" و "لأهلنا".

(٤) انظر المصدر السابق: ٣٤٢، ويروى: "خَلِيلِي مَا فِي الدَّارِ" و "إِذْ كَانَ" و "مُشْرَبٌ".

ثم شرب سبعا، فلم صَحَا آلى أَلَا يَأْكُلَ لَحْمًا، وَلَا يَشْرَبُ خَمْرًا، وَلَا يَدَّهِنُ بَدْهِنَ بَدْهِنَ، وَلَا يَصِيبُ امْرَأَةً، وَلَا يَغْسِلُ رَأْسَهُ مِنْ جَنَابَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَ بِنَّارِهِ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أخرى أن حُجْرًا طرد ابنه امرأ القيس "لَمَّا صَنَعَ فِي الشَّعْرِ بِفَاطِمَةَ مَا صَنَعَ، وَكَانَ لَهَا عَاشِقًا، فَطَلَبَهَا زَمَانًا فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، وَكَانَ يَطْلُبُ مِنْهَا غِرَّةً حَتَّى كَانَ مِنْهَا يَوْمَ الْغَدِيرِ بَدَارَةً جُلْجُلًا"<sup>(٢)</sup> ما كان، فقال<sup>(٣)</sup>:

\* قَفَا نَبْكَ مِنْ نِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ \*

فلما بلغ ذلك حُجْرًا غضب، وأوصى مولى له يقال له ربيعة بقتله، ثم طرده<sup>(٤)</sup>، وقيل: إنما طرده لأنه تغزّل بامرأة من نساء أبيه<sup>(٥)</sup>.

(١) الأغاني ٩: ٨٧-٨٨، وانظر الشعر والشعراء: ٥٢، وفي ص: ٥٨ ذكر ابن قتيبة أنه عندما قتل علباء بن الحارث الأسدي حُجْرًا، وأفلت امرؤ القيس يومئذ، حلف لا يغسل رأسه ولا يشرب خمرًا حتى يدرك ثأره ببني أسد، الكامل في التاريخ ١: ٥١٦، نشوة الطرب ١: ٢٤٨، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٢-٢٥٣، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧٠-١٧١.

(٢) انظر مغامرته بدارة جلجل في ديوانه: ١٠، الشعر والشعراء: ٦٥-٦٦. ودارة جلجل: موضع بديار كندة يقال له الحمى، وقيل: دارة جلجل عند عين كندة، انظر معجم ما استعجم: ٣٨٩.

(٣) انظر ديوان امرئ القيس: ٨، وتاممه: \* بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلٍ \*.

(٤) الشعر والشعراء: ٥١، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٤١، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١: ١٥٥-١٥٦، وكان يرى أن هذه القصة مخترعة على امرئ القيس، على غرار ما يحكى عن مشاهير الأبطال في صغرهم.

(٥) خزنة الأدب ١: ٣٧٥، وانظر شرح ديوان امرئ القيس: ١١ حاشية رقم (١) قال السنديوني: "وزعم بعض الرواة أن أباه طرده لأنه كان يتعشق امرأة أبيه المسمّاة هرة"، امرؤ القيس حياته وشعره: ٦٠-٦١، امرؤ القيس الملك الضليل: ٤١، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٤.

فلما طرده والده، صار يتجول في الأفاق يجمع إليه طائفة من الصعاليك والذؤبان والشذاذ من أحياء طييء وكلب وبكر، وأخذ يتنقل بهم في منازل العرب، ويغير بهم على أحيائها، ويقاسمهم ما تناله أيديهم، أو ما يقع لهم من الصيد، ثم يذهب بهم إلى المناهل والغدران والرياض، يذبح لهم، ويؤاكلهم، ويعاقرهم الخمر، وينشدهم الشعر، وتغنيهم قيانته، حتى جاءه خبير مقتل والده، فنبذ هذه الحياة وصمم على الأخذ بالنار من قَتلة أبيه<sup>(١)</sup>.

ولم يزل امرؤ القيس مع صعاليك العرب حتى أتاه نبأ مقتل والده وهو بدمون من أرض اليمن على رواية ابن الكلبي، وفي رواية أخرى تتسبب إلى الهيثم بن عدي "أن امرأ القيس لما قُتل أبوه كان غلاماً قد ترعرع، وكان في بني حنظلة مقيماً لأن ظنَّره كانت امرأة منهم. فلما بلغه ذلك قال<sup>(٢)</sup>:

يا لهفَ هندی إذ خَطُنَ كاملاً	القائِلينَ المَلِكِ الخُلاجِلاً
تالله لا يَذْهَبُ شِخِي باطِلاً	يا خَيرَ شِخِ حَسَباً ونَسابِلاً
وخَيرُهُم - قد عَلِمُوا - فواضِلاً	يَحْمِنُنَا والأَسَلِ النَوَاهِلاً
وحَيِّ صَعَبِ والوَشِيجِ الذَّابِلاً	مُسْتَفْرِمَاتِ بالحَصَى جَوَافِلاً" <sup>(٣)</sup>

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٥، وانظر شرح ديوان امرئ القيس: ١٢.

(٢) الرجز في ديوان امرئ القيس: ١٣٤-١٣٥ - باستثناء البيتين الخامس والسابع، وهما في ص: ٤١٨ (تحقيق رواية الديوان قصائده وأبياته)، الأول زاده ابن النحاس والثاني زاده السكري - باختلاف في ترتيب الأبيات، ويروى: "والله" و "خير معذ حسباً" و "مستفزمات بالحصى".

(٣) الأغاني ٩: ٨٨-٨٩.

وقيل: إن امرأ القيس حين نعي إليه أبوه وهو بدمون من حضرموت قال<sup>(١)</sup>:  
أتاني وأصحابي على رأس صيلع<sup>(٢)</sup> حديث أطار النوم عني فأنعمًا  
فقلت لعجلي بعيد ما أبه: أبين لي وبين لي الحديث المجمعًا  
فقال: أبيت اللعن، عمرو وكاهل أباحا حمى حُجر فأصبح مسلمًا

وفهم من هذه الأبيات أن امرأ القيس كان في "صيلع" عندما بلغه نبأ مقتل والده، أتاه به رجل اسمه عجل، ويُعرف بعامر الأعور<sup>(٣)</sup>، ويذكر ياقوت الحموي<sup>(٤)</sup> أن في "صيلع" ورد الخبر على امرئ القيس بمقتل أبيه حُجر.

وفي خبر آخر يفيد أنه نزل في "بني دارم"، وبقي عندهم حتى قتل عمه شرحبيل<sup>(٥)</sup>، وفي رواية مرجعها الهيثم بن عدي أيضاً أنه كان مع والده حُجر - في جمع من قومه كندة - عندما هاجمته بنو أسد وقتلته، وأنه هرب على فرس له شقراء، وتمكن من النجاة<sup>(٦)</sup>.

ويروي ابن السكيت أنه لما طعن الأسيدي حُجراً ولم يجهز عليه، أوصى ودفع كتابه إلى رجل، وطلب منه أن يستقري أولاده واحداً واحداً حتى يأتي امرأ القيس، ففعل، فلما أتى امرأ القيس وجده "مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد؛ فقال له: قتل حُجر. فلم يلتفت إلى قوله؛ وأمسك نديمه. فقال له امرؤ القيس: اضرب فضرب. حتى إذا فرغ قال: ما كنت لأفسد عليك دستك<sup>(٧)</sup>. ثم سأل الرسول

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٤٣، وانظر شرح ديوان امرئ القيس: ٢٠٥-٢٠٦، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٥، وفيه يروي جواد علي هذا الشعر في الخبر السابق الذي ينسب إلى الهيثم بن عدي، والذي ذكر فيه أن امرأ القيس كان مقيماً في بني حنظلة لما قتل أبوه، العقد الثمين: ١٠٦.

(٢) صيلع: موضع من اليمن كثير الوحش والظباء، انظر معجم ما استعجم: ٨٤٨.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٥.

(٤) معجم البلدان ٣: ٤٩٨.

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٥، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٤١-٤٢.

(٦) الأغاني ٩: ٨٥، وانظر ما ورد في الشعر والشعراء: ٥٨ ما يقرب من ذلك.

(٧) الدست: المجلس، وهي كلمة فارسية.

عن أمر أبيه كله فأخبره. فقال: الخمرُ عليّ والنساء حرامٌ حتى أقتل من بني أسد مائة وأجزّ نواصي مائة. وفي ذلك يقول<sup>(١)</sup>:

أرقتُ ولم يارقُ لِمَا بي نافعٌ      وهاج لي الشوقُ الهمومُ الروادعُ<sup>(٢)</sup>

وتناقض رواية ابن السكيت رواية أوثق<sup>(٣)</sup> منها تنسب إلى الهيثم بن عدي، وهي الرواية الوحيدة - من بين روايات أربع ذكرها أبو الفرج - التي تقرّر أن امرأ القيس شهد لقاء كندة مع بني أسد، وأنه هرب على فرس له شقراء، وأعجزهم للحاق به، ونستطيع أن نوفق بين هذه الروايات جميعها، إذا ذهبنا في التأويل إلى أنه فرّ من المعركة بعد أن هُزم قومه، وقبل أن يقتل أبوه، وأن الخبر جاءه هارباً في دُمون<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر ديوان امرئ القيس (تحقيق رواية الديوان قصائده وأبياته): ٤٦٥.

(٢) الأغاني ٩: ٨٧، وانظر الكامل في التاريخ ١: ٥١٥. يذكر الرواة منهم الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قدّم على امرئ القيس رجال من قبائل بني أسد بعد مقتل أبيه حجر - وقبل تنقله في قبائل العرب مستنجداً بها للثأر منهم - ليعتذروا إليه وليسوا قضية قتل والده، فرفض إلا الانتقام من بني أسد قائلاً لهم: "لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإنّي لن أعتاض به جملأ أو ناقةً فأكتسب بذلك سيئة الأبد وقت العُضد. وأما النظرة (المهلة) فقد أوجبتها الأجنّة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سبباً، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حقاً وفوق الأسنان علقاً (الدم)".

وفي رواية أخرى تنسب إلى أبي عبيدة في هذا المعنى تقول: إن بني أسد اجتمعت بعد قتلهم حُجر بن عمرو، والذ امرئ القيس، إلى امرئ القيس ابنه علي أن يعطوه ألف بعير دية أبيه؛ أو يقيدوه من أي رجل شاء من بني أسد، أو يمهّلهم حولاً؛ فقال: أما الدية فما ظننت أنكم تعرضونها علي مثلي، وأما القود: فلو قيد إلي ألف من بني أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفواً لحجر، وأما النظرة فلکم، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان، أحکم فيکم ظباً السيوف وشباً الأسنان، حتى أشفي نفسي وأنال ثأري. الأغاني ٩: ١٠٣-١٠٥، ٢٢: ٨٢ على الترتيب، وانظر ديوان عبيد: ١٣٥، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٨.

(٣) انظر حديث الطاهر أحمد مكي عنها في كتابه: امرؤ القيس حياته وشعره: ٤٧-٤٩، ٧٥.

(٤) انظر المرجع السابق: ٧٥.

ويذكر ابن الكلبي ويعقوب بن السكيت أن امرأ القيس ارتحل - بعد أن أتاه نساباً مقتل والده - حتى نزل بكرة وتغلب<sup>(١)</sup>، فسألهم النصر على بني أسد، فبعث العيون على بني أسد فنذروا<sup>(٢)</sup> بالعيون ولجأوا إلى بني كنانة، ثم علموا أن امرأ القيس يتعقبهم، فارتحلوا عن بني كنانة ليلاً دون أن يشعروا، فلما وصل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب إلى بني كنانة ظاناً بني أسد بينهم، نادى: يا لئارات الملك! يا لئارات الهمام! فأخبروه أن بني أسد قد تركوهم وارتحلوا عنهم، فقال في ذلك<sup>(٣)</sup>:

(١) من الأخبار التي تحدثت بها الرواة قبل نزول امرئ القيس على بكر وتغلب - فيما ذكره المفضل - أن ثعلبة بن مالك من بني عمرو بن معاوية من كندة نازعه على عرش أبيه بعد مقتله؛ قالوا: إن امرأ القيس وثعلبة أصابا الملك بعد قتل حجر، فنفس ثعلبة على امرئ القيس منزلته من نجد، فأقبل يقود الخيل إليه، وهو يريد قتاله، فبلغ ذلك امرأ القيس، فخرج بأصحابه ليلقاه بين الأبرقين، حتى إذا كان قريباً منه قال لجنده: اكنموا في غيابة من الأرض (أي منهيظ منها) فإني متقدم على فرسي حتى أبرز للقوم لملي أغترهم (أيهم على غرة)، فأطعن بعضهم وهم غارون (غافلون)، فإنهم سيركون في أثري ويعجلون عن أداتهم، فإذا مروا بكم متفرقين - وقد انهزمت لهم، وانقطع نظامهم - فاحملوا عليهم حملة رجل واحد، فانكمموا لهم، وخرجوا وخرج امرؤ القيس على فرسه، ومعه سيفه ورمحه، وقد لبس درعه تحت ثيابه حتى مر على راعي غنم، فسأله عن معسكر ثعلبة بن مالك، فدله عليه، فسار نحوه تَعُدُّ به فرسه، حتى خالط القوم، فلما كان في طرف من القوم طعن رجلاً منهم، ثم انهزم، فخرجوا في أثره، تعدو بهم خيلهم، ليس عليهم كثير أداة، حتى حاذوا أصحاب امرئ القيس وهم لا يشعرون بالمكيدة التي دبها لهم هو وأصحابه. فلما حاذوهم وفيهم ثعلبة بن مالك - وهو يومئذ معلم (أي أعلم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها) - حملوا عليه حملة رجل واحد، وكر امرؤ القيس، فحمل عليه وطعنه طعنة شديدة فأدراه عن فرسه، وانهزم أصحابه، وأسروا منهم كثيرين، وأسر ثعلبة، ثم قتله امرؤ القيس صبواً، وفي ذلك يقول قصيدته التي مطلعها:

أحار بن عمرو كأنني خميرٌ      ويغدو على المرء ما ياتميرُ

ديوان امرئ القيس: ١٥٣-١٦٧، وانظر أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) نذروا: علموا فحذروا.

(٣) انظر ديوان امرئ القيس: ١٣٨، العقد الثمين: ٦٩.

ألا يا لهفَ هِنْدِ إِثْرَ قَوْمٍ      هُمْ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا  
 وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بِنَيْي أَبِيهِمْ      وبالْأَشْقَيْنِ مَا كَانَ الْعِقَابُ  
 وَأَفْلَتْهُنَّ عِلْيَاءَ جَرِيضاً      ولو أَدْرَكْنَهُ صَفِرَ الْوِطَابُ

وتتبعهم امرؤ القيس حتى أدركهم فقاتلهم فكثر الجرحى والقتلى فيهم، وحجز الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم، وقالوا له: "قد أصبت ثأرك. قال: والله، ما فعلت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحداً. قالوا: بلى، ولكنك رجل مشؤوم، وكرهوا قتالهم بني كنانة، وانصرفوا عنه، ومضى هارباً لوجهه حتى لحق بحمير"<sup>(١)</sup>.

(١) الأغاني ٩: ٩٠-٩٢، وانظر ٢٢: ١١٨، الشعر والشعراء: ٥٢، وفيه ذكر ابن قتيبة أنه استجاش بكر بن وائل، وذكر في ص: ٥٨-٥٩ أنه عندما قُتل حُجْر أتى امرؤ القيس ذا جَدْنِ الحميري "فاستمدّه فأمدّه، وبلغ الخبرُ بني أسد فانتقلوا عن منازلهم، فنزلوا على قوم من بني كنانة بن خزيمة، والكنانيون لا يعلمون بمسير امرئ القيس إليهم، فطرقهم في جند عظيم، فأغار على الكنانيين وقتل منهم، وهو يظن أنهم بنو أسد، ثم تبين أنهم ليسوا هم، فقال:

ألا يا لهفَ نفسي إِثْرَ قَوْمٍ

..... (الآيات)

ثم تبع بني أسد فأدركهم وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وقال:

قُولاً لِدُودَانَ: عبيد العصا

..... (الآيات الآتية)

ثم إن المنذر بن ماء السماء غزا كندة فأصاب منهم، وأسر اثني عشر فتى من ملوكهم، فأمر بهم فقتلوا بمكان بين الحيرة والكوفة، يقال له جَفْرُ الأملاك، وكان امرؤ القيس يومئذ معهم، فهرب حتى لجأ إلى سعد بن الضباب الإيادي، سيد إياد، فأجاره... الكامل في التاريخ ١: ٥١٦-٥١٧، نشوة الطرب ١: ٢٤٨-٢٥٠، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، وأشار إلى أن امرأ القيس سار إلى المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة بعد أن فاته بنو أسد، وأوقع في كنانة، ثم سار في اتباع بني أسد، ولم يظفر منهم بشيء، و ص: ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٨-٣٨٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٦، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

ويشير ابن قتيبة<sup>(١)</sup> إلى أن امرأ القيس سار إلى بني أسد عندما لجأوا إلى بني كنانة، فأوقع ببني كنانة، ونجت بنو كاهل من بني أسد؛ فقال<sup>(٢)</sup>:

يا لَهْفَ نَفْسِي إِذْ خَطِنَ كَاهِلًا      الْقَاتِلِينَ الْمَلِكَ الْخَلِيلًا  
تالله لا يذهبُ شيخي باطلا

وذكر امرؤ القيس في شعره أنه ظفر بهم، فتأبى عليه ذلك الشعراء؛ قال عبيد<sup>(٣)</sup>:

يَا ذَا الْمُخَوِّفِنَا بِقَتْلِ ..... لَأَبِيهِ إِذْ لَأَلَا وَحَيْنَا  
أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ ..... سَرَاتِنَا كَذِبًا وَمَيْتَنَا

وفي رواية يرجعها الإخباريون إلى ابن السكيت: "أن امرأ القيس لما أقبل من الحرب على فرسه الشقراء لجأ إلى ابن عمته عمرو بن المنذر - وأمه هند بنت عمرو بن حُجر بن آكل المُرار، وذلك بعد قتل أبيه وأعمامه وتفرق ملك أهل بيته، وكان عمرو يومئذ خليفة لأبيه المنذر ببقة وهي بين الأنبار وهيبة - فمدحه وذكر صهره ورحمه وأنه قد تعلق بحباله ولجأ إليه، فأجاره، ومكث عنده زماناً. ثم بلغ المنذر<sup>(٤)</sup> مكانه عنده فطلبه، وأنذره عمرو فهرب حتى أتى حمير"<sup>(٥)</sup>.

(١) الشعر والشعراء: ٥٢، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٩.

(٢) انظر ديوان امرؤ القيس: ١٣٤ باختلاف في ترتيب الأبيات، وتروى: "لَهْفَ هِنْدٍ" و"والله". وفي خبر الأبيات: أنه قالها حين بلغه أن بني أسد قتل أباه.

(٣) الشعر والشعراء: ٥٢، وانظر: ١٨٧، والبيتان في ديوان عبيد: ١٣٦، تاريخ يعقوبي ١: ٢١٨، امرؤ القيس حياته وشعره: ٧٨-٧٩، والخبر مع البيتين في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦١.

(٤) ابن ماء السماء.

(٥) الأغاني ٩: ٩٢، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٦.

ويقول ابن الكلبي والهيثم بن عدي وعمر بن شبة وابن قتيبة<sup>(١)</sup>: إنَّ امرأ القيس خرج من فوره بعد امتناع بكر بن وائل وتغلب من اتباع بني أسد- إلى اليمن " فاستنصر أزد شنوءة؛ فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا. فنزل بَقِيلٍ يُدعى مَرْتَدَ الخير بن ذي جَدَن الحميري، وكانت بينهما قرابة، فاستنصره واستمده على بني أسد؛ فأمدّه بخمسمائة رجل من حمير؛ ومات مَرْتَدُ قبل رحيل امرئ القيس بهم، وقام بالمملكة بعده رجلٌ من حمير يقال له قَرْمَلُ ابن الحُميم وكانت أمه سوداء، فردد امرأ القيس وطول عليه حتى هم بالانصراف؛ وقال<sup>(٢)</sup>:

وَإِذْ نَحْنُ نَدْعُو مَرْتَدَ الْخَيْرِ رَبَّنَا      وَإِذْ نَحْنُ لَا نَدْعَى عبيدًا لِقَرْمَلٍ

(١) الأغاني ٩: ٩٢-٩٣، وانظر الأصنام: ٥٩-٦٠، معجم البلدان ٢: ٤٣٩، الكامل في التاريخ ١: ٥١٧، نشوة الطرب ١: ٢٥٠، وذكر ابن سعيد أن امرأ القيس انصرف إلى حمير فنزل بقبيلة تدعى مَرْتَدَ الخير من ذي جَدَن، فاستنصرهم فأمدوه بخمسمائة رجل، ولم يذكر في هذا الخبر موت مرتد وقيام قرملة بن الحميم بالمملكة بعده، وأشار ابن خلدون (تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣) إلى أنه بعد أن رجعت بكر وتغلب عن امرئ القيس سار إلى مؤثر الخير بن ذي جَدَن من ملوك حمير صريحاً بنصره بخمسمائة رجل من حمير بجمع من العرب سواهم، واجتزا ابن كثير (البداية والنهاية ١: ٢٠٤) هذا الخبر على استقسام امرئ القيس عند ذي الخلصة، وعلى إغارته على بني أسد وقتلهم قتلاً ذريعاً، بلوغ الأرب ٢: ٢٠٧، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٦-٢٥٧، المستشرقون والشعر الجاهلي: ١٠١، ١٠٦.

(٢) انظر ديوان امرئ القيس: ٣٤٢.

فأنفذ له ذلك الجيش؛ وتبعه شذاذ من العرب، واستأجر من قبائل العرب رجالاً، فسار بهم إلى بني أسد. ومرّ بنبالة<sup>(١)</sup> وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلصة<sup>(٢)</sup>؛ فاستقسم<sup>(٣)</sup> عنده بقداحه وهي ثلاثة: الأمر والناهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي؛ فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال: مَصِصْتَ بَطْرَ أُمَّكَ! لو أبوك قُتِل ما عَقَنْتِي. ثم خرج فظفر ببني أسد.

فلما أوقع بهم، وأدرك ثأر أبيه فيهم؛ قال<sup>(٤)</sup>:

قُولاً لِدُودَانَ<sup>(٥)</sup> عبيدِ العَصَا      ما غَرَكُمُ بِالْأَسَدِ البَاسِلِ!  
 قَد قَرَّتِ العَيْنَانِ مِنْ مالِكِ<sup>(٥)</sup>      ومن بَنِي عَمْرٍو<sup>(٥)</sup> وَمِنْ كاهِلِ<sup>(٥)</sup>  
 وَمِنْ بَنِي غَنَمِ بِنِ دُودَانَ<sup>(٥)</sup> إِذْ      نَقَذُ أَعْلَاهُمْ عَلَى السَّاقِلِ

.....

حَلَّتْ لِي الخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَأً      عن شُرْبِهَا فِي شُغْلِ شَاغِلِ  
 فَاليَوْمِ أَسْقَى غَيْرَ مُسْتَحَقِّبِ      إِثْمًا مِنْ اللهِ وَلَا وَاغِلِ

(١) نَبَالَةٌ: بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، وبين نباله ومكة نحو مسيرة ثمانية أيام. انظر معجم البلدان ٢: ١١.

(٢) ذو الخلصة: مَرْوَةٌ بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بنبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة. انظر الأصنام: ٤٩-٥٠.

(٣) الاستقسام: طلب القسم الذي قسم له وقدر مما لم يقسم ولم يقدر، لسان العرب: (قسم).

(٤) ديوان امرئ القيس: ١١٩-١٢٠، ١٢٢ و ٢٥٦-٢٥٨ باختلاف في رواية بعض الألفاظ.

(٥) دُودَانَ: قبيلة من بني أسد، وكذلك بنو مالك وبنو عمرو وبنو كاهل وبنو غنم: أحياء من بني أسد.

ويفهم من هذه الأبيات أنه أوقع في بطون بني أسد، في: "بني دودان" و "بني مالك" و "بني عمرو" و "بني كاهل" و "بني غنم بن دودان"، وهي التي قتلت أباه جُحراً<sup>(١)</sup>، قالها بعد أن أنجده قرمل بن الحميم الحميري<sup>(٢)</sup>، وأنه "ألبسهم الدروع البيض محمأة، وكحلهم بالنار"<sup>(٣)</sup>، فبرّ بيمينه، وحلّ له شرب الخمر<sup>(٤)</sup>.

"والح المنذر في طلب امرئ القيس ووجه الجيوش في طلبه من إياد وبهراء وتَنوخ ولم تكن لهم طاقة، وأمدّه أنوشروان بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه. وتفرقت حميرُ ومن كان معه عنه. فنجا في عُصبة من بني آكل المرار حتى نزل بالحارث بن شهاب من بني يربوع ابن حَنْظلة، ومع امرئ القيس أدرع خمسة: الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذبول كُنَّ لبني آكل المرار يتوارثونها ملكاً عن ملك. فقلما لبثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث إليه المنذر مائة من أصحابه يُوعده بالحرب إن لم يُسلم إليه بني آكل المرار فأسلمهم؛ ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند (بنت امرئ القيس) والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه؛ فخرج على وجهه

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٥٧٢.

(٢) شرح ديوان امرئ القيس: ١٧٢.

(٣) معجم البلدان ٢: ٤٣٩، وانظر شرح ديوان امرئ القيس: ١٧٢، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٧.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٧.

حتى وقع في أرض طييء<sup>(١)</sup>؛ وقيل: بل نزل قبيلهم على سعد بن الضباب الإيادي سيد قومه فأجاره<sup>(٢)</sup>، ومدحه امرؤ القيس<sup>(٣)</sup>.

ثم إن امرأ القيس تحول عنه فنزل برجل من بني جديلة طييء يقال له المعلّى بن تميم، وكان أجاره والمنذر بن ماء السماء يطلبه فمنعه ووقى له، ولم يكن للملكين: ملك العراق وهو المنذر، وملك الشام وهو الحارث بن أبي شمر الغساني اقتدار عليه<sup>(٤)</sup>، وفي ذلك يقول<sup>(٥)</sup>:

كأنني إذا نزلتُ على المعلّى      نزلتُ على البوّاذخ من شمام  
فما ملكُ العراقِ على المعلّى      بمقتدرٍ ولا ملكُ الشامِ  
أقرَّ حشاً امرئ القيس بن جحرٍ      بنو تميم مصاييح الظلام

(١) في العقد الثمين: ٦٤ صار إلى جبلي طييء أجا وسلمى.  
(٢) الأغاني ٩: ٩٣، وانظر ٢٢: ١١٨، الكامل في التاريخ ١: ٥١٧-٥١٨، نشوة الطرب ١: ٢٥١، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٧-٢٥٨، وجاء في العقد الثمين: ٧٣ أن امرأ القيس نزل على هانيء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة قبل سعد بن الضباب فاستجاره فلم يجره، فأتى سعد بن الضباب، فأجاره، فقال يمدحه ويهجو هانيء بن مسعود قصيدته التي مطلعها:

لعمرك ما قلبي إلى أهله بحرٌ      ولا مقصر يوماً فيأتيني بقرٌ  
(٣) انظر ديوان امرئ القيس: ١١٢-١١٣، ٢٠٧، ٢٦٠، الشعر والشعراء: ٥٩، الأغاني ٩: ٩٤، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨.

(٤) ديوان امرئ القيس: ١٤٠.

(٥) ديوان امرئ القيس: ١٤٠-١٤١، وبعد البيتين الأوليين:

أصدّ نساخ ذي القرنين حتى      تولى عارضُ الملكِ الهمام

وقد لبث عنده زماناً، ثم اضطرَّ إلى الارتحال عنه<sup>(١)</sup>، فخرج ونزل ببني  
 نهبان من طييء على خالد بن أصمغ النبهاني<sup>(٢)</sup>، فكان عندهم ما شاء  
 الله، ثم خرج فنزل بعامر بن جُوَيْن وهو يومئذ أحد الخُلعاء الفُتاك قد  
 تبرأ قومه من جرائمه، فبقي عنده زماناً، ثم أحسن منه ما رابه، إذ أراد  
 أن يغلب امرأ القيس على ماله وأهله، ففطن امرؤ القيس لذلك بشعر كان  
 عامر ينطق به، وهو قوله:

فكم بالصَّعِيدِ من هِجَانِ مَوْبِلَةٍ      تَسِيرُ صِحاحاً ذاتَ قِيدٍ ومُرْسَلَةٍ  
 أردتُ بها فَنَكاً فلم أرْتَمِضْته      ونهنتُ نفسي بعدما كدتُ أفعَلَه

(١) الأغاني ٩: ٩٤، وكان سبب تحول امرئ القيس عن المعلّى بن نعيم كما يذكر  
 الأصفهاني (٩: ٩٤-٩٥): أن امرأ القيس عندما أقام عند المعلّى زماناً اتخذ إبلاً هناك.  
 ففدا قوم من بني جديلة يقال لهم بنو زيد فطردوا الإبل. وكانت لامرئ القيس رواحل  
 مقيّدة عند البيوت خوفاً من أن يدهمه أمرٌ ليسبق عليهن. فخرج حينئذ فنزل ببني نهبان  
 من طييء، فخرج نفر منهم فركبوا الرواحل ليطلبوا له الإبل فأخذتهن جديلة، فرجعوا  
 إليه بلا شيء. فقال في ذلك:

وأعْجَبَنِي مَسِيُّ الحُرْقَةِ خالِدٍ      كَمَشِي أَتَانِ حُنَّتْ بِالْمَنَاهِلِ  
 فدَغَ عنكَ نَهْياً صِيحَ في حَجْرَاتِهِ      ولكن حديثاً ما حديثُ الرواحِلِ

ففرقت عليه بنو نهبان فرقاً من معزى يحلبها...، وانظر المحبر: ٣٥٣-٢٥٤، الكامل  
 في التاريخ ١: ٥١٨، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٩٤.

فلما خافه على أهله وماله تغفله وانتقل إلى رجل من بني ثعل يقول له حارثة بن مُر<sup>(١)</sup> فاستجار به، فوَقعت الحرب بين عامر وبين الثعلبي<sup>(٢)</sup>.

وفي ديوان امرئ القيس من رواية الأصمعي<sup>(٣)</sup> أن امرأ القيس تحول عن خالد بن أصمع النبهاني فنزل على جارية بن مُر بن حنبل أخي بني ثعل<sup>(٤)</sup>، فأجاره وأكرمه.

فلما وقعت الحرب بين طيء من أجل امرئ القيس، خرج من عندهم، ونزل برجل من بني فزارة يقال له: عمرو بن جابر بن مازن، وكان كثير التردد على قيصر امبراطور بيزنطة والنعمان ملك الحيرة، فطلب منه الجوار حتى يرى ذات عيبة<sup>(٥)</sup>، فأشار عليه الفزاري بالذهاب إلى السمؤال بن عادياء بتيماء، فوافق، وأرسله في صحبة رجل من بني فزارة يقال له: الربيع بن ضبع الفزاري كان ممن يأتي السمؤال فيحمله ويُعطيه، فوفد الفزاري بامرئ القيس

(١) هو: أبو حنبل جارية بن مُر الطائي ثم الثعلبي في: المحبر: ٣٥٢، وفيه: "الثعلبي"، الشعر والشعراء: ٦٠، فصل المقال: ١٣٩، ٣١٥، بلوغ الأرب ١: ١٣٥، العقد الثمين: ١٠٠، وفي الكامل في التاريخ ١: ٥١٨ "حارثة بن مُر" بالحاء المهملة.

(٢) الأغاني ٩: ٩٥-٩٦، وفي ديوان امرئ القيس: ٢١٢ أن المنذر بن ماء السماء بعث في إثر امرئ القيس جيشاً "فلجاً إلى المعلى، وكان في طيء، ثم في بني جديلة، ثم أحد بني ثعلبة، وكسان سيّداً متيعاً فمنعه من المنذر... ثم خرج من قوره ذلك حتى جعل المنذر يطلبه في كل مكان؛ فخشي أن يصيبه فلم يُنهه دون أن أتى قيصر ملك الروم..."، وفي الشعر والشعراء: ٥٩ أن امرأ القيس تحول عن سعد بن الضباب الإيادي إلى جيل طيء، فنزل على قوم منهم عامر ابن جوين الطائي، وفي الكامل في التاريخ ١: ٥١٨ أنه رحل عن المعلى بن تيم الطائي، ونزل بعامر بن جوين الطائي، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢.

(٣) ص: ٩٤، وروى البكري (فصل المقال: ٣١٥) في المثل: "هما ساقاً غادر شر" قصة امرئ القيس وأبي حنبل جارية بن مُر الطائي، ويقال: إن صاحب الخبر عامر بن جوين الطائي، وانظر ص: ١٣٩، وقال الأصمعي: المثل لعبيد بن شحنة، وقصة أبي حنبل في المحبر: ٣٥٢، بلوغ الأرب ١: ١٣٥-١٣٦.

(٤) انظر الحاشية رقم (١) من هذه الصفحة.

(٥) أي: ينظر في أمره ويصلح من شأنه.

إليه، فنزل عنده وأكرمه وعرف له حقه. ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، فاستجد له رجلاً، واستودع عنده ابنته هنداً وأدراعه وأمواله، وأقام مع ابنته "يزيد بن معاوية بن الحارث" ابن عمه، وخرج حتى انتهى إلى قيصر (١).

(١) الأغاسي ٩: ٩٦-٩٩، وانظر ٢٢: ١١٨-١١٩، شعر السموأل: ٧، طبقات فحول الشعراء: ٢٧٩، المحبر: ٣٤٩، الشعر والشعراء: ٦٠، وفيه ذكر ابن قتيبة أن امرأ القيس "لم يزل ينتقل من قوم إلى قوم بجبلي طييء، ثم سمت به نفسه إلى ملك الروم. فأتى السموأل بن عادياء اليهودي، ملسك تيماء، وهي مدينة بين الشام والحجاز، فاستودعه مائة درع وسلاحاً كثيراً...". مجمع الأمثال ٢: ٤٤١، المستقصى ١: ٤٣٥، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨. ويقرب من خبر الشعر والشعراء ما ذكره ابن سعيد في نشوة الطرب ١: ٢٥١، وأبو الفداء في المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٨، ٣٨٩-٣٩٠، بلوغ الأرب ١: ١٣٦-١٣٧، تاريخ أداب اللغة العربية ١: ١٠٨، تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٩٢، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢، العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦. أما اليعقوبي فإنه يروي في (تاريخه ١: ٢١٧-٢٢٠) عن امرئ القيس - منذ أن بلغه مقتل أبيه حُجِرَ إلى أن وصل إلى قيصر ملك الروم - رواية تختلف في كثير من أحداثها وتفاصيلها عن رواية صاحب الأغاني، يقول فيها: "فلما بلغه مقتل أبيه جمع جمعاً، وقصد لبني أسد، فلما كان في الليلة التي أراد أن يغير عليهم في صبيحتها نزل بجمعه ذلك، فذعر القطا، فطار عن مجانمه، فمرّ ببني أسد، فقالت بنت علباء: ما رأيت كالليلة قطاً أكثر! فقال علباء: لو ترك القطا لغطاً ونام، فأرسلها مثلاً. وعرف أن جيشاً قد قرب منه، فارتحل، وأصبح امرؤ القيس، فأوقع بكنانة، فأصاب فيهم وجعل يقول: يا للثارات! فقالوا: والله ما نحن إلا من كنانة! فقال:

ألا يا لهف نفسي، بعد قوم، ..... (الآبيات)

... ومضى امرؤ القيس إلى اليمن لما لم يكن به قوة على بني أسد ومن معهم من قيس، فأقام زماناً، وكان يُدْمِنُ مع نَدَامِي له، فأشرف يوماً، فإذا براكب مقبل، فسأله: من أين أقبلت؟ قال: من نجد! فسفاه مما كان يشرب، فلما أخذت منه الخمرة رفع عقيرته، وقال:

سقيناً امرأ القيس بن حُجْر بن حارث      كؤوس الشجا حتى تعود بالقهر  
والهاه شرب ناعيم وقرقر،      وأعياء تار كان يطلب في حُجْر  
وذاك لعمرى كان أسهل مشرعاً      عليه من البيض الصواريم والسمر

ويرى جرجي زيدان أن امرأ القيس أتى السموأل لما تنكرت له القبائل في اليمن ونجد والحجاز، فلم يجره أحد "فاستجاره فأجاره... وهو لا يرى من يستصره على أعدائه إلا قيصر الروم، لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه على جاري عادة العرب في ذلك العهد، إذا تظلموا من إحدى هاتين الدولتين استتصروا الأخرى"<sup>(١)</sup>. في حين يزعم بعض المؤرخين أن امرأ القيس قرّر أن يذهب إلى القسطنطينية ليستجد بملك الروم لأن قبائل العرب رفضت نصرته خوفاً من بني أسد، وخوفاً من إغصاب المناذرة والفرس<sup>(٢)</sup>، وهو زعم يحتاج - في شقه الأول - إلى إعادة النظر، ليس هذا محله.

فزع امرؤ القيس لذلك، ثم قال: يا أبا أهل الحجاز! من قائل هذا الشعر؟ قال: عبيد بن الأبرص. قال: صدقت! ثم ركب، واستجد قومه، فأمدّوه بخمسائة من مذحج، فخرج إلى أرض معدّ، فأوقع بقبائل من معدّ، وقتل الأشقر بن عمرو، وهو سيّد بني أسد، وشرب في قحف رأسه، وقال امرؤ القيس في شعر له:

قَوْلًا لِسُدُودَانَ: عَبِيدِ الْعَصَا، ..... (الآبيات)

وطلب قبائل معدّ امرأ القيس، وذهب من كان معه، وبلغه أن المنذر ملك الحيرة قد نذر دمه، فأراد الرجوع إلى اليمن، فخاف حضرموت، وطلبته بنو أسد وقبائل معدّ، فلما علم أنه لا قوة به على طلب المنذر واجتماع قبائل معدّ على طلبه، ولم يمكنه الرجوع، سار إلى سعد بن الضباب الإباضي، وكان عاملاً لكسرى على بعض كور العراق، فاستتر عنده حيناً، حتى مات سعد بن الضباب، فلما مات سعد خرج امرؤ القيس إلى جبليّ طيّء، ... فنزل بقوم من طيّء ثم لم يزل ينتقل في طيّء مرّة، وفي جديلة مرّة، وفي نيهان مرّة، حتى صار إلى تيماء، فنزل بالسموأل بن عاديا... فأودعه أذراعاً، وانصرف عنه يريد ملك الروم، حتى صار إلى قيصر ملك الروم، فاستصره، فوجه معه تسعمائة من أبناء البطارقة.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، وانظر العرب قبل الإسلام للمؤلف نفسه: ٢٤٦.

(٢) العرب قبل الإسلام لحسين الشيبخ: ١٧١، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٢٨-٢٩، الشوامخ امرؤ القيس: ١٧.

وثمة تأويل آخر نذهب إليه أن امرأ القيس ربّما فكّر خلال إقامته في بني فزارة - عند عمرو بن جابر بن مازن - أن يطلب العون والمدد من اميراطور بيزنطة، ولعله سمع عنه كثيراً منه<sup>(١)</sup>، وقد يكون الذهاب إلى قيصر اقتراحاً من مجيره الفزاري، وقوّاه الحارث الغسائي. إذ يوحى الخبر السابق أن الحارث شجّع على الرحلة، وقيل أن يقّده إلى قيصر، لوجود هدف مشترك يجمع بينهما، فكان الغساسنة، ممثلو بيزنطة في الشام، أعداء ألداء للمناذرة في الحيرة، وقد كان لهؤلاء - بمعاونة الفرس - الدور الكبير في تحطيم ملك كندة<sup>(٢)</sup> وملاحقة امرئ القيس<sup>(٣)</sup>، الأمر الذي جعل كلمتهم هي النافذة بين القبائل الضاربة في شرق الجزيرة الشمالي ونجد، وكان للغساسنة وبيزنطة مصلحة عامة في دعم امرئ القيس لاستعادة سلطانه، كي يصبح شوكة في ظهر المناذرة خصومهم التقليديين<sup>(٤)</sup>.

(١) وذلك عند قوله له: "جنت قيصر وجنت النعمان" في سياق حديثه عن السموال، إذ يوحى الخبر أن الفزاري كان يتردّد على قيصر وعلى النعمان، وأنه لم ير مثل السموال في إغائة الضيف؛ قال: "لم أرَ لضيف نازل ولا لمُجند مثله ولا مثل صاحبه"، وربما عنى بهذا صاحب الربيع بن ضبّع الفزاري، كان ممن يأتي السموال فيختمه ويعطيه. ولعل الخبر انطوى على أقوال أخرى في حق قيصر شجّعت امرأ القيس على الذهاب إلى بيزنطة، ولم يذكرها الرواة في الخبر الذي أورده صاحب الأغاني ٩: ٩٦-٩٧.

(٢) وذلك عندما عاد المنذر بن ماء السماء إلى ملكه في الحيرة في عهد أنوشروان، إذ هرب الحارث بن عمرو، وتبعته خيل المنذر، وقتل أهله. المصدر السابق ٩: ٨٠-٨١، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٢١.

(٣) وذلك منذ أن لاحق المنذر - بمساعدة الفرس - امرأ القيس عندما لجأ إلى ابن عمته عمرو بن المنذر، وبعد أن هرب إلى حمير، ومن ثم نزوله في بني حنظلة. الأغاني ٩: ٩٢-٩٣، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٢٨، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٨١، الشوامخ امرؤ القيس: ١٧.

(٤) انظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٨٥، ٨٧.

ويذكر الإخباريون أن قيصر قَبِلَ امرأ القيس وأكرمه، وصارت له منزلة عنده<sup>(١)</sup> ونادمه<sup>(٢)</sup>، وأنه دخل معه الحمام، وأن ابنته نظرت إليه فعشقتة، فكان يأتيها وتأتيه<sup>(٣)</sup>. ويذكرون كذلك أن قيصر<sup>(٤)</sup> أنجد امرأ القيس وبعث معه جيشاً كثيفاً فيهم جماعة من أبناء ملوك الروم، إذ طمع أن يكون له قوة في العرب يقاوم بها نفوذ الأكاسرة<sup>(٥)</sup>. ولكن رجلاً من بني أسد يقال له الطَّمَاح<sup>(٦)</sup> كان امرؤ القيس قد قتل أخاً له<sup>(٧)</sup>، لحق بامرئ القيس حتى أتى إلى بلاد الروم فأقام مستخفياً، فلما ارتحل امرؤ القيس قال لقيصر قوم من أصحابه<sup>(٨)</sup>: "إن العرب قومٌ غدر، ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه". وفي رواية لابن الكلبي أن الطَّمَاح قال لقيصر: "إن امرأ القيس غويٌّ عاهرٌ وإنه لمَّا انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك

(١) الأغاني ٩: ٩٩، وانظر نشوة الطرب ١: ٢٥١، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٢،

الشوامخ امرؤ القيس: ١٨، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٢) الشعر والشعراء: ٦١.

(٣) المصدر السابق: ٥٣، وانظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٩٢.

(٤) هو الامبراطور يوستينيانوس، انظر العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١. ويرسم

أيضاً: جستنيان ويستنيان ويوستنيانوس ويوسطنيانوس.

(٥) امرؤ القيس لسليم الجندي: ٢٤.

(٦) في الشعر والشعراء: ٥٣ "الطَّمَاح بن قيس الأسدي"، وانظر الشوامخ امرؤ القيس: ١٨،

وجاء في ديوان امرئ القيس: ١٠٨ من رواية الأصمعي عن الطَّمَاح قوله: إن الطَّمَاح

رجل من بني أسد، وإن الذي وشى بامرئ القيس عند قيصر هو رجل منهم، يقال له:

حبيب، وقال بعضهم: منقذ، وقد سمي الطَّمَاح بقول امرئ القيس: "لقد طمح الطَّمَاح من

بعد أرضه". وزعم "قوم أن الطَّمَاح رجل من بني أسد أرسله إليه قيصر بثوبه المسموم.

وقيل: الذي سار إليه بالثوب هو الطَّمَاح الأسدي".

(٧) في الشعر والشعراء: ٥٣ أن حُجراً قتل أباه.

(٨) في الشعر والشعراء: ٦٢ قِيلَ لقيصر: "إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلاً من العرب،

وهم أهل غدر، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوةً غراك".

أشعاراً يُشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك". فبعث إليه حينئذ بحلّة وآسي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له: "إني أرسلت إليك بحلّتي التي كنت ألبسها تكريماً لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إليّ بخبرك من منزل منزل". فلما وصلت إليه لبسها واشتدّ سروره بها؛ فأسرع فيه السمّ وسقط جلده؛ فلذلك سمّي ذا القروح، فلما وصل إلى بلدة من بلاد الروم تُدعى أنقرة<sup>(١)</sup> احتضر بها<sup>(٢)</sup>.

ويرى اليعقوبي في وشاية الطمّاح الأسدي بامرئ القيس رؤية أخرى تغاير -كل المغايرة- رواية صاحب الأغاني، فهو يزعم أن امرأ القيس مدح قيصر فسار الطمّاح الأسدي إلى قيصر؛ فقال له<sup>(٣)</sup>: "إن امرأ القيس شتمك في شعره وزعم أنك علج أغلف، فوجّه قيصر إلى امرئ القيس بحلّة قد نضج فيها السمّ، فلما ألبسها تقطع جلده وأيقن بالموت". في حين يذكر ابن كثير أن امرأ القيس "امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده، فلم يجد ما يؤمله عنده فهجاه بعد ذلك، فيقال إنه سقاه سمّاً فقتله"<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) اسم للمدينة المسماة: أنكورية، معجم البلدان ١: ٣٢٢، وانظر نشوة الطرب ١: ٢٥٢.  
(٢) الأغاني ٩: ٩٩-١٠٠، وانظر ديوان امرئ القيس: ٧، ١٠٨، ٢١٢-٢١٣، الشعر والشعراء: ٥٣، ٦٢، معجم البلدان ١: ٣٢٢، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨-٥١٩، نشوة الطرب ١: ٢٥١-٢٥٢، ٣٨٩، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، المزهري ٢: ٤٤٣-٤٤٤، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٩٢، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.  
(٣) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٠، وانظر تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، العرب قبل الإسلام لجرّي زيدان: ٢٤٦.  
(٤) البداية والنهاية ١: ٢٠٤.

أما أبو الفداء فيشكك في صحة الخبر المروي عن الحلة، فيقول<sup>(١)</sup>: "وقد قيل إن ملك الروم سمّه في حلة وهو عندي من الخرافات"، ويستكر جرجي زيدان مدى فاعلية هذا السمّ في القتل، فيقول أيضاً<sup>(٢)</sup>: "ولا نعرف سمّاً يفعل هذا

(١) المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥.

(٢) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦، وانظر تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨. وقد تناول رواية الحلة المسمومة عدد من الباحثين؛ فمنهم من أنكرها ورفضها، ومنهم من كان محايداً حيالها، فأما الفريق الأول - وهم الأكثر - فكانوا يرون أن امرأ القيس أصيب بمرض نتجت عنه قروح التهبّت فأودت بحياته، وأما الفريق الثاني فقد ربط بين القروح التي ظهرت في جسمه والحلة المسمومة؛ وهم - بالإضافة إلى ما ذكر في المتن -:

- البستاني (امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٣-٣٩٤) الذي اتكأ في ترجمته لامرئ القيس على بعض الأخبار التي نقلها عن المؤرخ نونوسوس، فهو يذكر أن نونوسوس لم يشر إلى ما تناقلته كتب الأدب العربي من أن امرأ القيس عشق ابنة قيصر، ونظم فيها الشعر، وأنه عندما علم قيصر بالأمر بعد رحيل الشاعر أرسل إليه بالحلة المسمومة، التي لم يكذبها حتى تناثر لحمه ومات. بيد أن المعروف أن الشاعر أصيب في أنقرة - وهو عائد إلى دياره من بيزنطة - بمرض كالجدري، فتوفي هناك، ولعل البثور والقروح الناتجة من هذا المرض أثارت مخيلة الرواة العرب، فأروا أن حادثة الحلة المسمومة أكثر تشويقاً وأوفر شاعرية من هذا الموت العادي، فألفوا تلك الأسطورة الجميلة، وسموا الشاعر "ذا القروح".

- أما محمد صالح سمك (أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٣) فقد أنكر - هو الآخر - مسألة الحلة، وكان رأيه فيها مماثلاً لبعض الشيء لرأي جرجي زيدان؛ قال: ونحن لا نعرف حلة مسمومة كهذه الحلة لها هذا التأثير العجيب، ولذلك فهي في نظري أشبه بالخيال منها بالقول اليقين، بل إنها من خرافات التاريخ، وليس في شعر امرئ القيس ما يدل على أن موته كان بسبب حلة مسمومة، وكل ما دل عليه شعره أنه قد تسرح بدنه، وأن الطمّاح وشي به إلى قيصر لا غير. والرأي عندي أن امرأ القيس مات بالجدري كما ذكر ذلك نونوسوس المؤرخ الروماني.

-- وأما سسلیم الجندي (امرؤ القيس: ٢٥) فقد فسّر موته بالحلة المسمومة على نحو مغاير، دون أن يشكك في الخبر المروي عنها، فيذكر أن موته بالحلة المسمومة يجوز أن يكون أصابه قروح من احتكاك الثياب بجسمه فخالطها السمّ، كما يجوز أن تكون تلك القروح التهبّت فأودت بحياته.

الفعل، وعلى كل حال فإن امرأ القيس قتل ولم ينل أرباباً، ويفند أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية رأي القدماء في موت امرئ القيس بالحلة المسمومة بقوله<sup>(١)</sup>: "وتزعم الرواية العربية أن يوستينيانس أراد أن يثار لشرفه الذي لوته امرؤ القيس بتغريره بابنته فخلع عليه حلةً فظهرت في جسمه قروح، ومن ثم عرف بذئ القروح، والحق أنه لم يكن ببلاط يوستينيانس أو ببلاط خلفه يوستيوس أميرة لها نفس الأوصاف التي ذكرها امرؤ القيس".

ويبدو أن هذه الرواية - القائلة بموت امرئ القيس مسموماً بالحلة، وعلاقته بابنة القيصر التي كانت وراء حثفه - قد شغلت بعض المستشرقين في ترجماتهم لامرئ القيس؛ فيرى بروكلمان<sup>(٢)</sup> أن فجور هذا الشاعر بإحدى بنات ملك الروم، ثم أمره بقتله في أنقرة وهو في طريق عودته - مخترع عليه؛ لأنه كثيراً ما كان يفاخر بمغامراته مع النساء<sup>(٣)</sup>، وأن قصة موته محترقاً لأنه لبس

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٤٠٦. وينقض هذا الرأي ما ذهب إليه الطاهر أحمد مكي (امرؤ القيس حياته وشعره: ٩١-٩٢)، فهو يرفض أن يكون الامبراطور غضب على شاعرنا لأنه شيب بابنته، إذ لا يستبعد أن يكون عندما رآها أعجب بها، ومن ثم تغزل بها، وهو أمر ليس مستغرباً من شاعر تعود الحديث عن النساء والتشبيب بهن، ولم يكن التغزل في امرأة جميلة مما يعاب في بيزنطة في عصر امرئ القيس ولا بعده. ويحتج لذلك بخبر رواه المقرئ (نفع الطيب ٢: ٢٥٨-٢٥٩) عن شاعر عربي وهو يحيى الغزال، جاء ببلاط قيصر سفيراً لعبدالرحمن الناصر خليفة الأندلس، فأعجبهت زوجة الامبراطور فتغزل بها، وكان الامبراطور مسروراً بما قيل عن جمال زوجته، وكانت زوجته أكثر منه سروراً.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١: ١٥٦.

(٣) أوضح مثال على ذلك: يوم دارة جلجل، ديوانه: ١٠-١٢، وانظر: ١٣-١٨، ٢٩-٣٢، ١٥٨-١٥٩، ٢٣٠-٢٣١، ٢٤١-٢٤٢، الشعر والشعراء: ٦٥-٦٦، امرؤ القيس حياته وشعره: ٥٨-٦٠، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١٤، امرؤ القيس الملك الضليل: ٥٢-٥٥، مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ٥٢-٥٥.

حلة مسمومة منحولة عليه أيضاً، ويعلّل منشأ ذلك - عند مَنْ ذهبوا هذا المذهب - سوء فهم بعض الأبيات من قصيدته: وبُذِلَتْ قرحاً دامياً بعد صحة<sup>(١)</sup>.

ولعل من أفضل الآراء في هذا الباب رأي الأستاذ حسن السندوبي الذي عرض لمسألة الخلّة وموت امرئ القيس، فهو يقول<sup>(٢)</sup>: "من تضارب هذه الأقوال يرجح أن مسألة الخلّة لا أصل لها: وإذا كان القيصر يريد إهداءه شيئاً لقدم إليه الهدية وهو عنده ولم يرسلها مع رسول بعد انفصاله عنه، وأن وشاية الطمّاح لم تترك لها أثراً في نفس القيصر وإلا لما أقام له هذا التمثال<sup>(٣)</sup>. ومن المعروف أن قياصرة الروم كانوا يتودّدون إلى العرب ويتألّفونهم ليكونوا في جانبهم ضدّ أكاسرة الفرس الذين كانوا معهم في نزاع دائم. والظاهر أن الطمّاح هو الذي أصيب بداء الجدري<sup>(٤)</sup> وسرت عدواه منه إلى امرئ القيس فتأثر به أشدّ تأثر حتى قضى عليه. ولذلك سمّاه في بيتيه الآتيين داءً ولم يسمّه سمّاً، وفي ذلك يقول امرؤ القيس<sup>(٥)</sup>:

لَقَدْ طَمَّحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بَعْدِ أَرْضِهِ      لَيْلَيْسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلَيْسَا  
فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً      وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفَسَا "

(١) انظر ديوان امرئ القيس: ١٠٧-١٠٨، الأبيات ١١-١٣، وسيأتي الحديث عنها.

(٢) شرح ديوان امرئ القيس: ٢٨-٢٩.

(٣) سيأتي الحديث عن ذلك - عمّا قريب - في خبر للأب لويس شيخو اليسوعي.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) انظر ديوان امرئ القيس: ١٠٧-١٠٨. باختلاف في رواية الألفاظ وبتقديم البيت الثاني

على الأول.

ويعلق على البيت الأول بقوله<sup>(١)</sup>: "عبر عن العدوى بالإلباس ولذلك سماه داء". وقال: ما تلبسا، يريد ما أصيب به في هذا الداء. ولعل الرواة قد أخذوا بظاهر اللفظ فتوهموا أن هناك حلة تلبس".

إن ما انتهى إليه السندوبي من تفسير لبيت امرئ القيس، وما ترتب عليه من نتيجة قد قال به المؤرخون قبله وبعده، في القديم والحديث، فذكر بعضهم أن امرأ القيس كان مصاباً بداء قديم<sup>(٢)</sup>، ويغلب على الظن أنه - كما ذكر أبو الفداء - قرحة قد طالت به<sup>(٣)</sup>، وقد ذكر ذلك في شعره<sup>(٤)</sup>، وأن هذا الداء عاوده في بلاد الروم بعد منصرفه عن قيصر<sup>(٥)</sup>، فلما وصل إلى أنقرة ثقل واشتد عليه المرض، فمات هناك<sup>(٦)</sup>. أو أن السم فتك به، فتوفي في هذه المدينة<sup>(٧)</sup>. وفي رأي آخر يفيد أن امرأ القيس كان مصاباً بخلل جنسي في بنيته، وانعكس ذلك في التهاب جلدي لأن العلاقة بين أمراض الجنس وأمراض الجلد مقررة علمياً، وأن المرض هو الذي أودى به في الحقيقة<sup>(٨)</sup>. وفي رواية للأصمعي أن امرأ القيس لمّا بلغ أنقرة - بعد وشاية الأسدي به إلى قيصر - طعن وقُتل وارفَضَ عنه أصحابه<sup>(٩)</sup>.

(١) شرح ديوان امرئ القيس: ٢٨، الحاشية رقم (١).

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤، وانظر العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٣) المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥.

(٤) ديوان امرئ القيس: ١٠٧، وانظر المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، وسيأتي الحديث عن ذلك.

(٥) انظر الحاشية رقم (٢).

(٦) الشعر والشعراء: ٦٣، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤.

(٨) امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٢.

(٩) ديوان امرئ القيس: ١٠٨.

والذي يبدو - من تجميع هذه الأخبار - أن امرأ القيس أُصيب بمرض هلك فيه، سواء أكان داءً قديماً أو عدوى سرت إليه من غيره؛ لأنه يتردد صدق هذه الحادثة في شعره، وأن الأقوال الأخرى التي ذكرت موته بغير المرض هي من قبيل الاحتمال والاستأويل والظن أو من نسج الرواة العرب. ويذكر أنه - بعد ذلك - رأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له: عسيب؛ فسأل عنها فأخبر بقصتها، ثم مات فدفن إلى جنب المرأة فقبره هناك<sup>(١)</sup>. وأشار الباحثي إلى قبره بأرض الروم في إحدى قصائده؛ فقال<sup>(٢)</sup>:

وَأَزْرَتِ الْخَيُْولَ قَبْرَ "امْرِئِ الْقَيْسِ" سِرَاعاً فَعُنَّ مِنْهُ بَطَاءٌ

وفي الخبر الذي ضمّنه الأب لويس شيخو اليسوعي ترجمة امرئ القيس إضافة جديدة لنا عن رحلة هذا الشاعر إلى قيصر، ومن ثم تولّيه إمرة فلسطين، ودائسه الذي كان سبباً في موته، وقد رأيت أن أذكر قوله كاملاً لأهميته في هذا المجال؛ فهو يشير إلى أن امرأ القيس قد جاء ذكره في "تواريخ الروم مثل نونوز وبركوب وغيرهما وهم يسمّونه قيساً، وقد ذكروا أنه قبل وروده على قيصر يوستينيانس أرسل إليه [بواسطة الحارث الخامس الغساني]<sup>(٣)</sup> وفداً يطلب منه النجدة على بني أسد وعلى المنذر ملك العراق، [دفعه إلى ذلك ما كان يعرفه

(١) الأغاني ٩: ١٠٠-١٠١، وانظر الشعر والشعراء: ٦٣، الكامل في التاريخ ١: ٥١٩، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، البداية والنهاية ١: ٢٠٤، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤.

(٢) ديوانه: ١٨، وانظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١: ١٥٦.

(٣) الزيادة من كتاب: امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٢، وذلك كما ذكر فوطيوس ناقل خبر سفارة نونوسوس إلى الحبشة والحميرين وقبائل البادية.

عن العهد المعقود بين جدّه الحارث وانسطاس قيصر، الامبراطور الأسبق<sup>(١)</sup>، وكان مع الوفد ابنة معاوية سيّره امرؤ القيس إلى قيصر ليبقى عنده كرهن. فكتب قيصر إلى النجاشي يأمره أن يجنّد الجنود ويسير إلى اليمن ويعيد الملك لصاحبه، ولعلّ هذا الوفد أرسله امرؤ القيس لما كان عند بني طيّء وطال عندهم مكثه. ثم أخبر المؤرخون الموماً إليهم أن امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه إلى قسطنطينية، فرغبة قيصر ووعده. وقد ذكر نونوز المؤرخ أن يوستينيانوس قلده إمرة فلسطين، إلاّ أنه لم يسع في إصلاح أمره وإعادة ملكه، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلده وكانت وفاته نحو سنة ٥٦٥م. أصابه مرضٌ كالجدري في طريقه كان سبب موته، ودُكر في كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه، ففعلوا وكان تمثال امرئ القيس هناك إلى أيام المأمون، وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة<sup>(٢)</sup>.

إن إرسال امرئ القيس وفداً قبله إلى القيصر أمر لم نعرفه من قبل، وكذلك لم يذكر أحد من الرواة العرب ذلك العهد الذي أشرنا إليه، والغريب أن رواية هذا الخبر من أوله إلى منتهاه، وغيره من الأخبار التي وردت في تواريخ الروم، لا أصل لها في الروايات العربية، وهي في ظني لا أساس لها من الصحة؛ لأنها تخالف ما تناقله جمهرة الرواة والإخباريين العرب عن رحلة

(١) الزيادة من المرجع السابق: ٣٩٢، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٦، المشرق: ١٠٠٥، وذكر الأب لويس شيخو اليسوعي أن القيصر انسطاس أرسل جدّ نونوسوس المؤرخ إلى الحارث ليعقد عهداً معه.

(٢) شعراء النصرانية ١: ٣٥، وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٢، امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٤، تاريخ أداب اللغة العربية ١: ١٠٨، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٦، الشوامخ امرؤ القيس: ١٧-١٨، المشرق: ١٠٠٥.

امرىء القيس من جهة، ولأنها قد تكون صيغت وقيلت لتحقق مطالب عندهم توافق مذهبهم من جهة ثانية، فقد ذكر أن يوستينيانس أجاب طلب امرىء القيس لسببين، أولهما: كون الطالب نصرانياً، إذ كان يوستينيانس من الغير على الدين، وثانيهما: وهو الأهم -كما يظهر من قول بركوب- أن عدو امرىء القيس كان المنذر، والمنذر من عمال الأكاسرة منافسي القياصرة في بسط السيطرة على أطراف الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>.

ويضيف أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية سبباً آخر جديداً تفرّد به، لرحلة امرىء القيس إلى الملك الرومي نختم به حديثنا في وصف هذه الرحلة، فيروي أن الامبراطور يوستينيانس أخذ بنصيحة الحارث بن أبي شمر الغساني والي بادية الشام، فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠م ليستعين به على الفرس، ومكث هذا الشاعر طويلاً في القسطنطينية، ثم استعمله على الشام وعلى القبائل التي تعيش على الحدود، ولقب بلقب فيلارق Phylarck أي الوالي، ولكنه توفي في أنقرة فيما بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠م<sup>(٢)</sup> أثناء رحيله لتولي منصبه هذا<sup>(٣)</sup>.

وأرى أن ما روي عن دعوة الملك الرومي لامرىء القيس إلى القسطنطينية، وجعله أميراً على قبائل فلسطين ليستعين به على الفرس - منحول

(١) انظر امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٢.

(٢) وانظر الشوامخ امرؤ القيس: ٢١. وقيل: كانت وفاته عائداً من القسطنطينية نحواً من عام ٥٦٥م، قريباً من أنقرة. امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٢، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٤٠٦، وانظر شرح ديوان امرىء القيس: ٢٩-٣٠.

عليه للأسباب التي ذُكرت آنفاً، وأضاف بروكلمان أنه حدث حقيقة لابن عمه: قيس بن سلمة<sup>(١)</sup>. وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين والرواة العرب أيضاً.

فإذا كان وصف رحلة امرئ القيس قد سار على هذا النحو، فذلك لأن المظان التي اعتمدنا عليها في هذا السرد وزوّدتنا بالأخبار السابقة، قد فصلت القول في تنقل امرئ القيس بين القبائل في داخل الجزيرة العربية واليمن، وفي ذكر الأماكن التي أقام فيها إقامة قصيرة أو طويلة، وأجملته في خارجها إلى أن وصل إلى قيصر، وهو وصف يدل - في عمومته وإن تضاربت بعض الآراء - على أن هذا الشاعر ابتدأ رحلته من الجزيرة العربية، ثم اتجه في سيره إلى الغرب إلى أن انتهى به المطاف إلى عاصمة الروم، ويؤرخ بعض المستشرقين هذه الرحلة فيذكر أن ذهب امرئ القيس إلى القيصر يوستينيانس كان حوالي سنة ٥٣٠ للميلاد<sup>(٢)</sup>.

ويبدو من الأخبار التي عرضنا لها أنه كان يعوزها - من أجل أن تكون دليلاً قائماً على صواب استنتاجنا - الشعر الجاهلي، ونعني به شعر امرئ القيس الذي سجّل فيه بعض الأحداث التي حدثت معه، أو الأماكن التي مرّ بها في طريقه إلى بلاد الروم، وفي إقامته عندهم، وفي طريق عودته إلى دياره بعد منصرفه عنهم، حيث انتهت به العودة إلى أنقرة التي كانت نهايته فيها؛ وكذلك شعر عمرو بن قميئة رفيقه في السفر.

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١: ١٥٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٥، وانظر الخبر السابق من دائرة المعارف الإسلامية. ويقرّر الطاهر أحمد مكي أن بداية رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية تقع في زمن قريب من عام ٥٦٣م. انظر حديثه عن ذلك وطرق استدلاله في كتابه: امرؤ القيس حياته وشعره: ٨٨-٨٩.

فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذا يسهل علينا الانتقال في الحديث إلى المحور الثاني المتعلق بالأشعار التي أومأنا إليها.

\* \* \*

(٢)

يذكر الرواة أن عمرو بن قميئة كان رافق امرأ القيس في سفره إلى قيصر ملك الروم<sup>(١)</sup>، وقد أشار إلى ذلك امرؤ القيس في شعره؛ فقال<sup>(٢)</sup>:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ      وَأَيَّقَنَ أَنَا لِاحِقَانٍ بِقَيْصَرَ  
فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْكْ عَيْنَكَ إِنَّمَا      نَحَاوِلُ مُلْكَأَ أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذِرَا

ويذكرون أنه كان من قُدماء الشعراء في الجاهلية، وهو أقدم من امرئ القيس، قيل: كان مع حُجر أبيه، ولقيه امرؤ القيس في آخر عُمره فأخرجه معه إلى

---

(١) انظر المصادر في الحاشية رقم (١) في الصفحة التالية.

وقد ورد في ديوان امرئ القيس (ص: ٣٤٧) من رواية السكري أن الحارث بن حبيب السلمي كان خرج معه إلى الشام، ولكنه لم يكمل الرحلة، فمات في الطريق قريباً من بصرى في تلك الديار؛ فقال يرثيه:

ثَوَى عَسَدَ الوَدِيَّةِ جَوْفَ بَصْرَى      أَبُو الأَيْتَامِ وَالْكَلِّ العِجَافِ  
فَمَنْ يَحْمِي المَضْسَافَ إِذَا دَعَا      وَيَحْمِلُ خُطَّةَ الأَنْسِ الضَّعَافِ

وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٨٧.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٦٥-٦٦، وفي رواية للمفضل الضبي (ص: ٢١٢): أن الذي خرج مع امرئ القيس إلى قيصر رجل من بني سدوس، ويقال إنه من ضبيعة هو عمرو بن قميئة، وجاء في معاهد التنصيص ١: ٣٨٩ أن هذين البيتين قالهما امرؤ القيس في الربيع ابن ضُبَعِ الفَزَارِي لَمَّا لَجَأَ إِلَى السَّمَوَالِ بن عاديء، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢-٢٦٣.

قَيَّصِرَ فِي بِلَادِ الرُّومِ لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ يَسْتَمِدُّهُ عَلَى بَنِي أَسَدٍ، فَمَاتَ مَعَهُ فِي طَرِيقِهِ، وَسَمَّاهُ الْعَرَبُ عَمْرًا الضَّائِعَ لِمَوْتِهِ فِي غُرْبَةٍ وَفِي غَيْرِ أَرَبٍ وَلَا مَطْلَبٍ<sup>(١)</sup>.

ويروي ابن قتيبة في ترجمته لامرئ القيس، فيقول<sup>(٢)</sup>: "ثم سار ومعه عمرو بن قميئة أحد بني قيس بن ثعلبة، وكان من خدم أبيه، فبكى ابن قميئة وقال له: غررت بنا، فأنشأ امرؤ القيس يقول: "وروى أبياته<sup>(٣)</sup>. ويشكك بعض المستشرقين في مرافقة عمرو هذا لشاعرنا، فيذكر أن خروجه إلى الروم مع امرئ القيس ملك للأسطورة<sup>(٤)</sup>، دون أن يقدم دليلاً واحداً أو شاهداً مقنعاً على صحة رأيه، الذي خالف فيه ما أتى به الرواة قديماً وحديثاً، والذي نقض فيه قصيدة صحيحة النسبة لامرئ القيس من رواية عالم ثقة هو الأصمعي، من أبياتها أبيات تذكر عمرو بن قميئة وصحبته له والأحداث التي حصلت معهما في هذه الرحلة.

(١) الأغاني ١٨ : ١٣٩، وانظر ص: ١٤٤، ديوان امرئ القيس: ٢١٢، ديوان عمرو بن قميئة: ١٥٦، فحولة الشعراء: ١٠، طبقات فحول الشعراء: ١٦٠، الشعر والشعراء: ٢٩٢ المؤلف والمختلف: ٢٥٤، معجم الشعراء: ٤، الموشح: ٣٢، نشوة الطرب ٢: ٦٢٦، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، خزنة الأدب ٤: ٤١٢، امرؤ القيس لسليم الجندي: ٢٣-٢٤، امرؤ القيس الملك الضليل: ٣٠، قراءة ثانية في شعر امرئ القيس: ٧٥، الملك الضليل امرؤ القيس: ١٤٥، ١٤٧.

(٢) الشعر والشعراء: ٦٠-٦١.

(٣) روى البيهقي السابقين (بكى صاحبي...) بزيادة بيتين آخرين عليهما، هما:

وإني أذبن إن رجعت مملكاً      بسير ترى منه الفرائق أزورا  
على ظهر عادي تحار به القطا      إذا سافه العود الديافي جرجرا

(٤) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٨٥.

وتبيّن هذه الرواية وسابقتها أن بين امرئ القيس وعمرو بن قميئة سابق معرفة، وأن هذه المعرفة نمت وتطورت بحيث تمكّن شاعرنا من أن يعرض الرحلة وسببها على عمرو بن قميئة، فيوافق هذا الآخر ويكون رفيقه في سفره ذلك. في حين نجد صاحب الأغاني يروي رواية أخرى عن سفر امرئ القيس إلى قيصر تنفي - في محتواها - وجود المعرفة بين هذين الشعاعين، يقول أبو الفرج<sup>(١)</sup>: "نزل امرؤ القيس بن حُجر ب بكر بن وائل، وضرب قَبْتَه، وجلس إليه وجوه بكر بن وائل، فقال لهم: هل فيكم أحد يقول الشعر؟ فقالوا: ما فينا شاعر إلا شيخ قد خلا من عمره وكبر، قال: فأتوني به، فأتوه بعمر بن قميئة وهو شيخ، فأنشده فأعجب به، فخرج به معه إلى قيصر، وإياه عنى امرؤ القيس بقوله:

بكي صاحبي ... ..... (البيتان)

وقال مؤرّج في هذا الخبر: إن امرأ القيس قال لعمر بن قميئة في سفره: ألا تركب إلى الصيّد؟ فقال عمرو<sup>(٢)</sup>:

شَكَوتُ إليه أَنّي ذُو جِلالَةٍ      وأُنّي كَبيرٌ ذُو عِيالٍ مُجَنَّبٍ  
فقال لَنَا: أَهلاً وَسَهلاً ومرحَباً      إذا سَرَكمُ لحمٌ مِنَ الوَحشِ فارَكَبُوا"

(١) الأغاني ١٨ : ١٤٤، وانظر ديوان امرئ القيس: ٦٥، ديوان عمرو بن قميئة: ١٥٥-١٥٦، وروي هذا الخبر في مقدمة القصيدة رقم (١٤) من ديوان ابن قميئة على نحو آخر، حيث تقول الرواية: ومَرَّ امرؤ القيس بن حُجر الكندي ب بكر بن وائل، فـضرب قِبَابَه؛ فقال: أما فيكم شاعر؟ فقالوا: بَلَى! بَقِيَ لنا شيخ من قيس بن ثعلبة فسألهم أن يأتوه به. فلما أتاه استنشده، فأعجبه. فقال له امرؤ القيس: اصنحيتي! ففعل؛ فانطلق معه، فهلك؛ ولذا سُمِّيَ عَمراً الضائع، فقال عمرو بن قميئة: ". (البيتان)، امرؤ القيس لسليم الجندي: ٢٣.

(٢) انظر ديوان عمرو بن قميئة: ١٥٦، ويروي: "مُحَنَّبٌ".

وسواء كان بين امرئ القيس وعمرو بن قميئة سابق معرفة أو لم تكن هذه المعرفة موجودة أصلاً، فإن امرأ القيس استصحبه معه في رحلته إلى قيصر في بلاد الروم، فأجابه إلى صحبتته، وأنه لما صار إلى سائيدما وهو جبل هناك<sup>(١)</sup>. تذكر أهله ودياره فبكى شوقاً إليهم؛ وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup>:

قَدْ سَأَلْتَنِي بِنْتُ عَمْرٍو عَنِ الْـ      أَرْضِ الَّتِي تُنَكِّرُ أَعْلَامَهَا  
لَمَّا رَأَتْ سَائِيْدِمَا اسْتَعْبِرَتْ،      لله دَرٌّ - الْيَوْمَ - مَنْ لَأْمَهَا!  
تَذَكَّرَتْ أَرْضاً بِهَا أَهْلُهَا      أَخْوَالَهَا فِيهَا وَأَعْمَامَهَا

وقد استدعى ظاهر البيت الأول الرواة إلى تعيين الشخص الذي بكى في هذه الرحلة، خاصة أن الإخباريين لم يشيروا إلى أن عمرو بن قميئة قد اصطحب ابنته معه؛ فقال أبو محمد الأسود الأعرابي في تفسيره عن أبي الندي<sup>(٣)</sup>: "سبب بكائها... أنها لما فارقت بلاد قومها، ووقعت إلى بلاد الروم بكت، وندمت على ذلك، وإنما أراد عمرو بهذه الأبيات نفسه لا بنته، وإنما كنى عن نفسه بها. وسائيدما: جبل بين مئافارقين وسعرت... وقال عمرو هذا الشعر حين خرج مع امرئ القيس إلى الروم<sup>(٤)</sup>، وقصتهما معروفة".

(١) سيأتي الحديث عن "سائيدما" فيما بعد.

(٢) المصدر السابق: ١٨١-١٨٤.

(٣) فرحة الأديب: ٨٧، وانظر تحصيل عين الذهب ١: ٩١، وفيه قال الأعمى الشنتمري - ونقله عنه البغدادي في الخزانة (٤: ٤٠٨) - "وصف امرأة نظرت إلى سائيدما - وهو جبل بعينه بعيد من ديارها - فذكرت به بلادها فاستعيرت شوقاً إليها، ثم قال: لله در اليوم من لامها على استعبارها وشوقها، إنكاراً على لائمها، لأنها استعيرت بحق، فلا ينبغي أن تُلام"، وعقب البغدادي على كلام الأعمى، فقال: "هذا كلامه. وليس هذا معنى الشعر فتأمل"، معجم البلدان ٣: ١٩٠، خزانة الأدب ٤: ٤٠٧.

(٤) في معجم البلدان وخزانة الأدب: "ملك الروم" مع اختلاف يسير في بعض ألفاظ الخبر.

ومما يؤيد القول إن عمرو بن قميئة لم يُردّ بهذه الأبيات بنته، وإنما أراد نفسه قول امرئ القيس: "بكى صاحبي..."، حيث أشار إلى بكاء عمرو عندما صحبه في رحلته، فهما لماً جاوزا بلاد العرب وصارا ببلاد الروم، وأيقن عمرو أنهما لاحقان بقيصر حنّ إلى بلاده فبكى، وكذلك قول ابن قتيبة في ترجمته لامرئ القيس، وأبي الفرج الأصفهاني في ترجمته لعمرو بن قميئة السابقين.

فإذا كان شعر عمرو بن قميئة قد زوّدنا بأبيات يسيرة عن هذه الرحلة، دلّت - في مضمونها - على الموضوع الذي كانت إليه الرحلة وانتهت فيه؛ فإن هذا يدفعنا إلى التساؤل: أي الطرق سلّك، وما هي الأماكن التي مرّ بها، وإلى أي الجهات توجّه؟ ولعل شعر امرئ القيس أوفر حظاً في الإشارة إلى شيء من ذلك! ولكن - قبل أن نمضي في الحديث عن ذلك - لا مناص من أن أشير إلى بيت لعبيد بن الأبرص شاعر بني أسد، وكان معاصراً للأحداث، يذكر فيه رحلة امرئ القيس إلى قيصر، ويسخر من وعيده، ويدعو عليه بالهلاك وأن يلقى مصيره وهو بالشام؛ يقول<sup>(١)</sup>:

أزَعَمْتَ أَنْكَ سَوْفَ تَأْتِي قَيْصِرًا؟      فَلْتَهْلِكَنَّ إِذْنِ وَأَنْتَ شَامِي<sup>(٢)</sup>

إن خبر امرئ القيس مع الغساسنة في طريقه إلى قيصر لا نعلم عنه شيئاً، وليس في شعره هو ما يشير إلى أنه ذهب إليهم رجاء التوسط في الوصول إليه<sup>(٣)</sup>، سوى ما ذكرناه عن صاحب الأغاني وغيره من أنه طلب إلى السموأل بن عادياث أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام -

(١) ديوان عبيد: ١٢٤، وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٩١.

(٢) وأنت شامي: أي وأنت بالشام قبل أن تصل إلى قيصر.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٣.

صاحب النفوذ عند قيصر الروم يومئذ<sup>(١)</sup> - ليوصله إليه، ففعل، واستصحب معه رجلاً يدلّه على الطريق، ومضى حتى انتهى إلى قيصر.

وكذلك لم تشر الأخبار العربية إلى سفره إلى القسطنطينية، ولا إلى كيفية وصوله إلى قيصر<sup>(٢)</sup>، وليس "في كتب الروم أو السريان الواصلة إلينا إشارة إلى هذه الحوادث التي يرويها الإخباريون عن ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية، وطلبه النجدة من القيصر وموته في أنقرة، ولا عن الشعر الذي قاله في حق القيصر، وفي حق القبر الذي شاهده، وما إلى ذلك مما يذكره الإخباريون. فأمر مثل هذه لا يعرفها هؤلاء"<sup>(٣)</sup>. ويبدو من شعره أنه سلك طريق الشام<sup>(٤)</sup>، وأنه مرّ على "حورّان"<sup>(٥)</sup> و "بعلبك"<sup>(٦)</sup> و "حمص"<sup>(٧)</sup> و "حماة" و "شيزر"<sup>(٨)</sup>، وقال في مسيره قصيدته المشهورة التي مطلعها<sup>(٩)</sup>:

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرََا      وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوْ فَعَرَعَرَا

أمّا ما بعد ذلك من الأماكن التي مرّ عليها حتى وصل إلى عاصمة الروم، فلا نعرف عنها شيئاً.

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، وانظر العرب قبل الإسلام لجرّجى زيدان: ٢٤٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٣.

(٣) المرجع السابق ٣: ٢٦٥.

(٤) سيأتي الحديث عن القصيدة، وانظر بالإضافة إليها: الأغاني ٢٢: ١١٨، ١١٩، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٨، ٣٩٠.

(٥) مدينة بالشام.

(٦) قرية بالشام بين دمشق وحمص.

(٧) مدينة بالشام.

(٨) موضعان في ناحية الشام، وانظر مروره في هذه الأماكن - بالإضافة إلى القصيدة - في: المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥.

(٩) القصيدة في ديوان امرئ القيس: ٥٦-٧١، وانظر المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، شعراء النصرانية ١: ٤٥-٤٩، العقد الثمين: ٧٧-٨٠.

وقد حفظ لنا ديوان امرئ القيس ثلاث قصائد<sup>(١)</sup> من الشعر الذي يتصل بالرحلة إلى قيصر، يلتقي في روايتها العالمان الجليلان الأصمعي والمفضل الضبّي وآخرون<sup>(٢)</sup>، وقصيدة<sup>(٣)</sup> وردت في زيادات ملحق الطوسي من المنحول الثاني<sup>(٤)</sup>، لم تثبت في رواية المفضل والأصمعي وأبي عبيدة، ونسبها غيرهم إلى امرئ القيس، ومقطوعة تفرد الضبّي بروايتها، ومقطوعتان مما زاده السكّري على غيره من الرواة.

والقصيدة الأولى هي الرابعة في الديوان<sup>(٥)</sup>، وعدد أبياتها أربعة وخمسون بيتاً، وقد سبقت الإشارة إلى أنه قالها في الطريق إلى قيصر. جمعت هذه القصيدة صفات شعره في الطور الأول من حياته<sup>(٦)</sup>، فإنه سبّب فيها بصويحباته،

(١) رواية الأصمعي من نسخة الأعم.

(٢) انظر الفصل الخاص بذلك في ديوان امرئ القيس: تحقيق رواية الديوان: قصائده وأبياته في المواضع: ٣٩٠، ٤٠٠، ٤٠٥، امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٤.

(٣) مطلعها:

أَذْكَرْتَ نَفْسَكَ مَا لَنْ يَعودَا      فهاج التذكُّرُ قلباً غميداً

انظر ديوان امرئ القيس: ٢٥١-٢٥٤.

(٤) وهو الشعر الذي ألحقه شارح النسخة بها، وسمّاه "المنحول الثاني" مما كتبه عن غير الطوسي، والنحل في قصائد هذا القسم ومقطوعاته - وعددها ست وعشرون - بيّن، وتكاد تكون نسبتها لامرئ القيس معدومة. انظر المصدر السابق: ١٢ (المقدمة).

(٥) الذي حقّقه محمد أبو الفضل إبراهيم، والذي اعتمدت عليه في هذا البحث، ص: ٥٦-٧١، وهي الرابعة في مخطوطة الأعم الشنتمري، والخامسة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي على ابن الأعرابي من رواية المفضل)، والخامسة في مخطوطة السكّري ومخطوطة البطليوسي، والسادسة عشرة في مخطوطة ابن النحاس، والأربعون في مخطوطة أبي سهل. وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٤-٩٩، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١٩٥-٢٠٢، أمير الشعر في العصر القديم: ٣٠٥-٣١٢، قراءة ثانية في شعر امرئ القيس: ٦٤، ٧٤، ٧٥، ١١٠، ١٣١، ١٤٢.

(٦) الطور الأول قبل مقتل أبيه، والثاني بعده.

وذكر الأماكن والديار التي مرَّ بها، ووصف الطرق التي سلكها. وهي تصوّر شخصية امرئ القيس أصدق تصوير في النزوع إلى الماضي والتطلع إلى المستقبل، وتعبّر عن مشاعره المتلونة أوضح تعبير وهو يتأرجح بين جزر اليأس ومدّ الأمل، فهي صدّي حقيقي لواقع قائم، وتجربة قاسية مرَّ بها، وحياة مأهولة بالمتاعب خاضها متحدياً لها. بدأها بمقدمة ظلّية هي أطول مقدمة في ديوانه، وتلائم موضوع الرحلة وتنسجم معه، فقد بعثت صاحبته وقومها، وحلّوا في موضعين متباعدين عن دياره، فاشتدّ لذلك شوقه وتضاعف حزنه، وصاحبته كنانية القبيلة يعمرية الحي، انقطعت عنه وجاورت غسان، ومع ذلك فإن ودّها باق في صدره لا يذهب ولا يتلاشى، فلما ارتحلوا - عن المرتبَع الذي جمعهم - اتّبعهم بنظره حزناً لفراقهم حتى غابوا وراء الأنهار من جنب تيمر. وتراءى للشاعر - وهو في هذا الموقف المؤثر - مظهر الطعائن الجميل وهي تغادر الديار، فأرسل خياله في تصوير هذا المنظر تصويراً ينمّ عن الشعور بالجمال والإحساس بروعة الأشياء، فهوادجهن عالية مختلفة الألوان، تغذّ السير، فتبدو للرائي - من بعيد - حدائق دُوم أو سفينةً مطلياً بالقار تدفعه الرياح، أو نخيلاً عاليات باسقات يغمر أسافلها الماء، من نخيل ابن يمين في هجر دون الصفا وبعد المُشَقَّر<sup>(١)</sup>. ولكن هذه الطعائن الجميلة الموشاة بألوان من الصوف الأحمر والأصفر لا تشبه حدائق الدُوم أو السفين المطلي أو النخيل ذا الألوان المختلفة وحسب، وإنما تشبه تماثيل من تماثيل سَقْف<sup>(٢)</sup>، على قوائم مرمرية تكسو وادي الساجوم المزبد<sup>(٣)</sup> بنقش ملون، أو صور مزخرفة على جدر مطلية.

وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بطنَ قَوْ فَعَرَعَرَا	سَمَا لَكَ شوقٌ بعدما كان أَقصرَا
مجاورة غسان والحسيّ يغمرا	كنانية بانّت وفي الصّدْرِ ودّها
لدى جانب الأفلج من جنب تيمرا	بعينيّ ظغنُ الحيّ لَمّا تحمّلوا

(١) قصران بناحية اليمامة.

(٢) سَقْف: موضع فيه صور.

(٣) المزبد: ذو الرّبْد.

فَشَبَّهَتْهُمُ فِي الْأَلِّ لَمَّا تَكَمَّشُوا      حَدَائِقَ دَوْمٍ أَوْ سَفِينًا مَقِيرًا  
أَوْ الْمُكَرَعَاتِ مِنْ نَخِيلِ ابْنِ يَامِنٍ      دُوَيْنَ الصَّنَا اللَّائِي يَلِينُ الْمَشْقَرَا  
كَأَنَّ دُمَى سَفْفٍ عَلَى ظَهْرِ مَرْمَرٍ      كَسَسَا مَزِيدَ السَّاجُومِ وَشَيْئًا مُصَوَّرَا

وأتبع الشاعر الحديث عن رحلة الطعائن بغزل حيي وقور على غير ما عرف عنه من الغزل الإباحي والخلاعة والمجون والتهتك الخلقى الفاحش، ولعلَّ انشغاله بما يقضَّ عليه مضجعه، ويستحوذ على عقله صرفه عن التفكير بنوازع فواده وإرضاء شهواته، والتلذذ بها ولو على سبيل الذكرى. فالنسوة في الطعائن منعمات مصونات يتحلين بالياقوت<sup>(١)</sup> ويقطع من الذهب المصوغ على هيئة فقار الجردة<sup>(٢)</sup>، ويتطيبن بالطيب الذكي الرائحة الذي انتشرت رائحته العطرة في أرجاء المكان، كما لو كان حقه حميرية<sup>(٣)</sup> رميت بمسك إذفر<sup>(٤)</sup> قد فتقت نافجته فانتشرت رائحته وقويت. وبضروب أخرى من الطيب والعطور كالبان واللبني وأعواد من البخور الهندي كالألوة والرند والكباء<sup>(٥)</sup>. هؤلاء النسوة ذهبن بقلبه، واستولين عليه، وعلقن بحب حبيب لا يستطعن الانفكاك عنه، وكانت سليمي صاحبه تدعيه ثم فارقته وذهبت هي الأخرى بقلبه، وقطعت ما بينه وبينها من حبل الوصال، وكان هذا الحبيب لها فيما خلا من الدهر خليلاً، يختلس النظر إلى

(١) انظر مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٤٠-١٤١، الزينة في الشعر الجاهلي: التزيين بالحلي: ١٤٩-١٥٠.

(٢) انظر مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٣٧، ١٥٠ والحاشية رقم (٢)، الزينة في الشعر الجاهلي: التزيين بالحلي: ١٥٧.

(٣) هي أداة أو وعاء لحفظ الطيب والحلي، وتكون من الخشب والعاج. انظر مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ٢٠٦-٢٠٧.

(٤) الإذفر: القوي الرائحة.

(٥) لمزيد من التفصيل في الحديث عن هذه الأنواع من الطيب والعطور، انظر المرجع السابق: ١٦٨-١٧٢، ١٧٧-١٧٨، ١٨١، ١٨٢، الزينة في الشعر الجاهلي: زينة الطيب والعطور: ٢١٠، ٢١١، ٢١٤-٢٢٤، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٥٠-٢٥١، ٢٥٧، ٢٦٠-٢٦٣.

خبائها ذي الأستار الصفاق مخافة الرقباء، إذا فجأها فنظر إليها فزَع قلبه وخَفَق، كَفَزَع التَّمَل إذا نظر إلى الخمر فاستفظعها ورهب منها مع محبته فيها وحرصه على التلذذ بالسُّكَّر منها. وكانت فاترة نشوى، إذا قامت لأمر تمايلت منثنية تداري فؤادها لتشدّد، وتحمل نفسها على التماسك، وتتكلف الجَد لئلا تنهار. ولقد تغيّر ودّها، فإن قطعت ما بينه وبينها لبعده عنها، ووصلت غيره، ومالت بهواها إلى آخر، فله العذر حينئذ أن يستبدل بها غيرها، وأن يميل بهواه إلى امرأة أخرى، فالجزاء من جنس العمل، وإنما يقول هذا عند خروجه إلى قيصر، ومفارقته أهله ودياره. وربما أثر الشاعر - في هذه الأبيات - "مزج ثنائية (الحرمان - الجمال) في تجربة من تجاربه؛ ليعبر بهذا المزج التقابل بينه وبين المرأة، فهو يتمناها من ناحية، لكنه - على غير المألوف - يهتئء لفراقها من ناحية أخرى، وهذا التقابل يبدو جلياً في تجربة مزدوجة بين سلمى وأسماء، حيث يستخلصهما من بين نساته لهذه المغامرة المميزة"<sup>(١)</sup>.

غرائرُ في كِنِّ وصنُونٍ ونَعْمَةٍ	يُحَلِّينَ ياقوتاً وشَدراً مَفَقَّرا
ورِيحِ سَنَا في حَقَّةِ حَمِيرِيَّةٍ	تُخَصُّ بمَفْرُوكٍ من المسكِ أَذْفرا
وباناً وألويّاً من الهندِ ذاكياً	ورنّداً ولُبْنَى والكِبَاءِ المَقْتِرا
غَلَقْنِ برهنٍ من حَبِيبٍ به ادَّعَتْ	سُلَيْمَى فأمسى حَبْلُها قد تَبَتَّرا
وكان لها في سالفِ الدهرِ خَلَّةٌ	يُسَارِقُ بالطَّرْفِ الخِباءِ المُسْتِرا
إذا نالَ منها نَظْرَةٌ رِيحَ قلبه	كما دَعَرَتْ كَأْسُ الصَّبُوحِ المَخْمِرا
نَزِيفٌ إذا قامت لوجّه تمايلت	تراشي الفؤادَ الرَّخْصَ ألا تَخْتِرا
أَسْمَاءُ أمسى ودُّها قد تَغَيَّرا	سَنبِذِلِ إن أُبْدِلتِ بالودِّ آخِرا

(١) قراءة ثانية في شعر امرئ القيس: ١٠٩.

وانتقل بعد ذلك إلى تذكر أهله الصالحين، وما هو عليه من سفر واغتراب، مسجلاً في الأبيات التالية أحزانه وألامه النفسية التي اعتورت فؤاده، ورافقتة في مسيره إلى أرض الروم منذ أن فارق أهله ودياره، فهو عندما صار إلى بعض مواضع الشام إلى "خَمَلَى" و "أَوْجَرَ"<sup>(١)</sup> وقد بَعُدَ عن أهله وعن ديار محبوبته، تذكّرهم واشتاق إليهم، ولما دنا من "حَوْران" فبدت له في الآل<sup>(٢)</sup> دون أسماء لم ير شيئاً يسرُّ به، إذ كان كل ما رآه جديداً عليه غريباً عنه، لا يصله به نسب ولا تشدُّه إليه عاطفة<sup>(٣)</sup>، فكان كل ما رآه غير مرئي لحقارته وقبحه في عينه، فلما جاوز حماة وشيّر تقطعت به أسباب الحاجة إلى مَنْ أحب يأساً من اللقاء، وشغلاً بما لقيه من الشدة والعناء. ولطول المسافة وبعد الديار كانوا يسيرون متعجلين، فقد أخذت القافلة تغدّ السير، وتجهد نفسها بسرعة فوق طاقتها، حتى ضجّت الإبل المسنة من سرعتهم، فكان مَنْ تخلف منهم لشيء أصابه لم يتربّص عليه حتى يدركهم. ورغم الأهوال التي ألمّت به، وما لقي من عناء السفر، وبُعد الشقّة<sup>(٤)</sup> لم ينس نساءً في هودج مرتفعة، جلّت حملتهن بالخمل، خضراء اللون كأثل وادي الأعراض، فارقتة عند انقضاء المرتبوع والرجوع إلى المياه، مررن "ببيشة" وخلفن "الغمير" قاصدات "غضور".

تَذَكَّرْتُ أَهْلِي الصَّالِحِينَ وَقَدْ أَنْتَ عَلَى خَمَلَى خُوصُ الرِّكَابِ وَأَوْجِرَا  
فَلَمَّا بَدَتْ حَوْرَانُ فِي الْآلِ دُونَهَا نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ بَعِينِيكَ مَنْظُرَا  
تَقَطَّعَ أَسْبَابُ الْأَسْبَابِ وَالْهَوَى عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حِمَاءَ وَشَيْزِرَا  
بَسَّيْرٍ يَضِجُ الْعَوْدُ مِنْهُ يَمْنُهُ أَخُو الْجَهْدِ لَا يَلْوِي عَلَيَّ مَنْ تَعَدَّرَا

(١) موضعان قبل الشام.

(٢) الآل: السراب.

(٣) امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٥.

(٤) الشقّة: بُعد مسير إلى الأرض البعيدة.

ولم يُنْسِنِي مَا قَدْ لَقِيتُ ظَعَانِنَا      وَخَمَلًا لَهَا كَالْقَرِّ يَوْمًا مُخَدَّرًا  
كَأَنَّكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ مِنْ دُونِ بَيْشَةَ      وَدُونَ الْغَمَّيْرِ عَامِدَاتٍ لِعَضُورًا

وخرج من هذا إلى وصف ناقته الجسرة<sup>(١)</sup> الذمول<sup>(٢)</sup> وإلى الفخر بنفسه، حتى إذا أرضى نفسه في وصفها بستة أبيات أشار إلى أنها تحمل على ظهرها فتى لم تحمل الأرض مثله، وفاء بما عاهد، وصبراً على ما يجد. ويفخر بنفسه على بني أسد ويخوفهم منه، فيذكر الأعمال التي قام بها للتأثر لأبيه، فهو المنزل الألوفا من حصن ناعط بأرض همدان، فإذا أرادوا النجاة بأنفسهم فعليهم أن ينزلوا بما غلظ من الأرض وخشن، وأن يتحصنوا بالجبال. ويزعم أنه لو شاء لغزاهم من أرض حمير بقومه وأصحابه، ولكنه استنجد بملك الروم، وطلب العون منه، تشجيعاً عليهم، وإبلاغاً في نهكهم، وتبيين شرفه وفضله لمشاركة ملك الروم له.

فَدَعَّ ذَا وَسَلَّ الْهَمَّ عَنْكَ بِجِسْرَةٍ      ذَمُولٍ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا

.....

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله      أهرِّ بميثاقٍ وأوقى وأصبراً  
هو المنزل الألوفا من جو ناعط      بني أسد حزنًا من الأرض أوعراً  
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير      ولكنه عمداً إلى الروم أنقرا

ويرافقه في هذه الرحلة - كما أخبرنا - عمرو بن قميئة، وكان شيخاً كبيراً<sup>(٣)</sup>، وقد أحس عمرو خلال هذه الرحلة الشاقة بقسوة الغربة، وعذاب

(١) الجسرة: الناقة النشيطة.

(٢) الذمول: التي تسير سير الذميل، وهو سير سريع.

(٣) الأغاني ١٨: ١٣٩، ١٤٤، وغيره.

الوحدة، ووحشة الدار، فعندما جاوز وصاحبه بلاد العرب إلى بلاد الروم، مخلفين وراءهما أرضاً عزيزة وذكريات جميلة، وأيقن عمرو أنه صائر إلى قيصر لا محالة، حنَّ إلى بلاده فبكى، فيسليه امرؤ القيس عن البكاء، ويخفف من آلامه وأحزانه بأن يصير على ما يجد حتى يدركا ما يطلبان من الملك، بالوصول إلى قيصر والرجوع إلى قتال بني أسد، إلا أن يحول الموت دون ذلك، فيكون لهما العذر إذ لم يقصرا في الطلب. ويطيب خاطرهم ويهدئ من روعه فيذكر له لئن استجاب له قيصر، ورجع من عنده بجيش عظيم يستعيد به ملكه، فإنه كفيل بأن يسير سيراً شديداً، يطوي الأرض طياً، فيبلغا ديارهما في زمن وجيز.

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ      وَأَيَّقِنَ أَنَا لِأَحِقَّانِ بِقَيْصَرَ  
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا      نَحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتَ فَنَعْدِرَا  
وَإِنِّي زَعِيمٌ إِنْ رَجَعْتَ مُمْلِكاً      بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الْفُرَانِقُ<sup>(١)</sup> أَرْوَرَا

ثم أعقب ذلك في وصف الطريق الذي سلكه، فهو طريق غير مسلك  
ليس فيه علم ولا منار فيبهتدي به، إذا شمته الإبل المسنة رغت لبعده وما تلقى  
من مشقته، على فرس قوي مقصوص الذنب استعمل من قبل في سير البريد،  
خميص البطن كذب الغضا، ماض في الجري، يتحدر العرق من جوانبه لشدة  
السير ومشقته، إذا حركه بالركض وبالزجر من جانبيه كليهما تبخر في مشيه،  
ومال في أحد جانبيه، ثم حرك فمه باللجام عبثاً ونشاطاً.

فإذا اطمأن الشاعر إلى أنه خفف عن رفيقه ألم الغربة، وهون عليه بُعد  
الشقة، واصل مسيره حتى إذا جهدا وشقَّ عليهما السير دعا امرؤ القيس الفرانق

(١) الفرانق: الذي معه، دليل أو غيره.

إلى الغناء والتطريب لبروح عنهما، ويسليهما عن بعض ما يجدا من المشقة والعناء، فأرن وهو على فرس قوي شديد، لئن العروق والمفاصل، مقطوع الذنب.

على لأحب لا يهتدى بمناره  
على كل مقصوص الذنابي معاود  
أقب كسرحان الغضا ممتطر  
إذا زغته من جانبيه كليهما  
إذا قلت روعنا أرن فرانق  
إذا سافه العوذ النباطي جزراً  
بريد السرى بالليل من خيل بربرا  
تري الماء من أعطافه قد تحذراً  
مشى الهندي في دقه ثم فرقراً  
على جعد واهي الأباجل أبتراً

ويواصل الشاعر سيره في الشام متنقلاً في قراها في مواضع كان فيها غريب اليد واللسان، إلى أن صار إلى بعثتك فأنكره أهلها، وكان أهل حمص أشد إنكاراً له، وذلك لعدم معرفتهم به، وحينئذ أرسل خياله يرود آفاق الوطن فتذكر الأحبة فأخذ يراقب هطول المطر ليعلم أين وقع ومصبه، طمعا منه أن يكون في ديار من يحب، فيشتفي بذلك، ولكن لا شيء يشفيه من الشوق إلى ابنة عفزر والحنين إليها. هي من المتحبيات إلى أزواجهن اللاتي لا تطمح أعينهن إلى غيرهم تعففاً وحسن صحبة، ناعمة رقيقة لو مرت نملة صغيرة فوق ثوبها لأثرت في جلدها.

وليست ابنة عفزر المرأة الوحيدة - من بين النساء اللاتي عرفهن - التي تذكرها والتي كانت تشده إلى وطنه، وإنما كان لصاحبتيه أم هاشم والسياسة ابنة يشكر ماضٍ معه وذكرى، فهو يلوم نفسه إن مضت به الرحلة وأمسى بعيداً عنهما، نائياً عن ديارهما، لما يلقي من الوجد بهما والاشتياق إليهما.

تَقَدْ أَنْكَرْتَنِي بَعْلَبُكَ وَأَهْلَهَا      وَلَاابِنُ جُرَيْجٍ فِي قُرَى حِمَصٍ أَنْكَرَا  
نَشِيمُ بُرُوقِ الْمُزْنِ أَيْنَ مَصَابِهِ      وَلَا شَيْءَ يَشْفِي مِنْكَ يَا بِنَةَ عَقْرَا  
مَنْ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ      مِنْ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لِأَثْرَا  
لَهُ الْوَيْلُ إِنْ أَمْسَى وَلَا أُمَّ هَاشِمٍ      قَرِيبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَةَ ابْنَةَ يَشْكُرَا

ولم يزل امرؤ القيس كذلك ينتقل من بلد إلى آخر، حتى إذا أمضى خمس عشرة ليلة سيراً وراء الحساء من أعمال قيصر، بدا له أن أم عمرو بن قميئة تبكي عليه لبعدها عنه وشوقها إليه، وما كان أصبرها قبل فراقها له<sup>(١)</sup>!

ويبدو أن امرأ القيس لم يلق في الديار الجديدة ما يسره ويقرّ عينه، فأخذ يشكو حظه من الدنيا، ويتألم لتغير الدهر له، فهو كلما لقي إنساناً ورجا منه حسن الصحبة خانته وتغير عنه، وأخلف ظنه، فانتقل إلى آخر واستبدل به غيره، ولكن الناس سواسية في هذا الخلق.

أَرَى أُمَّ عَمْرٍو دَمَعُهَا قَدْ تَحَدَّرَا      بكَاءَ عَلَى عَمْرٍو وَمَا كَانَ أَصْبِرَا  
إِذَا نَحْنُ سِرْنَا خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً      وَرَاءَ الْحِسَاءِ مِنْ مَدَافِعِ قَيْصِرَا  
إِذَا قَلْتُ هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيئُهُ      وَقَرَّتْ بِهِ الْعَيْنَانِ بَدَلْتُ آخِرَا  
كَذَلِكَ جَدِّي، مَا أَصَاحِبٌ صَاحِبًا      مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَانَنِي وَتَغَيَّرَا

ويختتم الشاعر قصيدته مفتخراً بقومه في أصلهم البعيد، فقد كانوا قبل غزوة قرمل يتوارثون الغنى والمجد كائناً عن كائناً، ولئن تراخى أصحابه عن اللقاء - في أحد الأيام - فليس ذلك لجبن أدركهم، أو ضعف استولى عليهم،

(١) أو وما كان عمرو أصبر من أمه حين بكى لما رأى الذرب دونه، بعيداً عن صحبه وأماكن لهوه.

ولكنهم ذكروا المواطنين والأهل، وحنّت نفوسهم إليها، فرجعوا عن العدو حرصاً على اللحاق بالأهل، ولتشفى النفوس بلقائهم. وما أكثر الأيام التي شهدتها في "تأذف"<sup>(١)</sup> و "طرطر" فكانت له فيها الظفر والغلبة، ولكن ليس يوم - في حياته - مثل يوم "قذاران" حيث كان ظفره في هذا اليوم أشدّ ظفراً، وغلبته أقوى غلبة، وإن كان قد أصاب حاجته وأدرك طلبته، فقد كان وأصحابه فيه على حذر وقلة طمأنينة كأنهم على قرن ظبي. ويزهو بعادة كانت موجودة عندهم أنهم كانوا يشربون حتى يذهب السكر عقولهم، ويحير أبصارهم فيحسبوا الخيل حولهم غنماً، والسود حمراً.

وَكُنَّا أَنَاسًا قَبْلَ غَزْوَةِ قَرْمَلٍ	وَرَثْنَا الْغِنَى وَالْمَجْدَ أَكْبَرَ أَكْبَرًا
وَمَا جِئْت خَيْلِي وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ	مَرَابِطَهَا مَسْنِ بَرَبِيعِصَ وَمَيْسَرًا
أَلَا رَبُّ يَوْمٍ صَالِحٍ قَدْ شَهِدْتُهُ	بِتَأْذِفِ ذَاتِ اللَّئْلِ مِنْ فَوْقِ طَرْطَرًا
وَلَا مِثْلَ يَوْمٍ فِي قُذَارَانَ ظَلَّتُهُ	كَأَنِّي وَأَصْحَابِي عَلَى قَرْنِ أَعْقَرًا
وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسِبَ الْخَيْلَ حَوْلَنَا	نِقَادًا وَحَتَّى نَحْسِبَ الْجَوْنَ أَشْقَرًا

إن انتقال الشاعر انتقالاً مفاجئاً من الحديث عن رحلته إلى قيصر، وعن المتاعب والأهوال التي واجهته في سفره هذا إلى الفخر بقومه، يجعلنا نشعر بوجود فجوة كبيرة بين الموضوعين تحول دون ترابطهما في المعنى والمضمون، وفي تسلسل الأحداث، إمّا لأن الشاعر لم يحسن الانتقال من موضوع إلى آخر، ولم يأت بأداة يربط بها بينهما ولو كانت محاولة متكلفة، وإما - وهو احتمال نذهب إليه - أن تكون أبيات بينهما قد ضاعت، ويقال من قيمة هذا الاحتمال أن أحداً من الرواة الثقات لم ينصّ على ذلك.

(١) في معجم ما استعجم: ٣٠٠ دون همز، موضع قبل طرطر.

ويبدو أن أخبار امرئ القيس مع قيصر كانت قليلة، أو أنه لم يسجل في شعره ما دار بينه وبين الملك الرومي من أحاديث شتى عن منادمته له، وبيان منزلته عنده، أو عشقه لابنته، وقد نجد له العذر في عدم الاهتمام بتضمين هذه الأحداث في شعره وقتئذ، لأنه كان مشغولاً بإقناع قيصر بتقديم العون والمدد له على بني أسد قتلة أبيه، وربما استغرق اقناعه وقتاً، لأن "النجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرة جداً، والجيس الرومي لم يكن مستعداً للقتال في الصحراء، ثم إن الغاية التي جاء من أجلها امرؤ القيس - وهي الأخذ بثأر رجل واحد - كانت بعيدة عن سياسة الروم ومألوفهم، فضلاً عن أن الامبراطورية الرومانية كانت مهتدة بهجمات البرابرة، ومن ثم فالامبراطورية كانت في حاجة إلى الدفاع عن امبراطوريتها بنفسها"<sup>(١)</sup>. حتى هذه الحادثة - التي هي هدف الرحلة - لم يذكرها امرؤ القيس في شعره إلا ذكراً يسيراً، كما هو الحال في هذه القصيدة.

والذي يبدو لي أن امرأ القيس لم يكن معنياً - عندما رحل إلى القسطنطينية - في الأخذ بثأر أبيه، وأن الدافع إلى الرحلة كما تناقله الرواة والإخباريون قد يكون وهماً وقع فيه القدماء، وتبعهم المحدثون على ذلك، لأنه - في الحقيقة - ثأر لأبيه، وقتل أناساً كثيرين وهو في داخل الجزيرة العربية، واحتمال أن يرحل إلى الامبراطور البيزنطي من أجل هدف كهذا يبدو أمراً مستهجناً حقاً. والواقع أن امرأ القيس كان يسعى لاستعادة سلطانه وإحياء عرش أبيه وأجداده، بحيث يصبح ملكاً موفور الجانب، مسموع الكلمة، في منطقة تضم العديد من القبائل العربية، ويذل خصمه المنذر بن ماء السماء<sup>(٢)</sup>، وقد صرح بهدفه هذا في قوله لرفيقه:

(١) العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٢) انظر في ذلك امرؤ القيس حياته وشعره: ٩١، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١١، امرؤ القيس الملك الضليل: ٤٤، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧٣، الشوامخ امرؤ القيس: ١٦، الملك الضليل امرؤ القيس: ١٤٦.

فقلتُ له: لا تَسْبِكْ عَيْنَكَ إِنَّمَا نَحاولُ مُلْكاً، أو نَمُوتَ فَنُعْذَرًا

والقصيدة الثانية التي تتصل برحلة امرئ القيس إلى قيصر هي القصيدة الثالثة عشرة في الديوان<sup>(١)</sup>، وهي أقصر من الأولى ومن التي تليها، عدد أبياتها أربعة عشر بيتاً، ويبدو منها أنه قالها لما شارف على أنقرة في طريق عودته إلى دياره. ويذكر الرواة في مناسبتها أن قيصر أرسل معه جيشاً كثيفاً، فلما قفل به راجعاً إلى دياره، وشى به الطمّاح عنده، فأرسل قيصر في طلبه رسولاً، فأدركه دون أنقرة بيوم، ومعه حلة مسمومة منسوجة بالذهب، فلبسها في يوم صائف فرحاً بها، فتناثر لحمه، وتفتّر جسده، فسمي لذلك ذا القروح، فقال هذه القصيدة يصف ما به، على أن مضمونها يوحي بغير ذلك، ويناقض هذا الخبر مناقضة واضحة.

بدأ القصيدة بمقدمة طالية قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أبيات، يدعو فيها صاحبيه إلى النزول على الطلل مساعدة له حتى يسأله عن أهله، وقد ناداه وتحدّث إليه فلم يجبه، وكأنه ينادي أو يكلم أخرساً، خلت الديار من أهلها فلا أنيس بها يستقرّ عندهم، ويقيم فيهم، ولو أن أهل الدار فيها كما عهدهم زمن

(١) ص: ١٠٥-١٠٨، وهي الثالثة عشرة في مخطوطة الأعم الشنتمري، والرابعة عشرة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي على ابن الأعرابي من رواية المفضل)، والتاسعة عشرة في مخطوطة السكري، والرابعة عشرة في مخطوطة البطليوسي، والسادسة والثلاثون في مخطوطة ابن النحاس، والثالثة والأربعون في مخطوطة أبي سهل. وانظر الشعر والشعراء: ٦٢، تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٠، الأغاني ٩: ١٠٠، الكامل في التاريخ ١: ٥١٩، نشوة الطرب ١: ٢٥٢، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، شعراء النصرانية ١: ٣٣-٣٤، امرؤ القيس حياته وشعره: ١٠٠-١٠١، امرؤ القيس الملك الضليل: ١٣٦-١٣٨، أمير الشعر في العصر القديم: ٣١٢-٣١٤، الشوامخ امرؤ القيس: ١٨-٢٠ قراءة ثانية في شعر امرئ القيس: ٦٣، ٦٤، ١٣١، ١٤٢.

المرتبع لنزل فيهم ظهراً واستراح عندهم ليلاً. أنكره أهلها لما أتاها فلم يجد فيها ما يوافقها ويسرّ عينه، وهو الذي عرفوه وصحبوه أياماً ارتبَعوا فيها غَوَلاً والعس.

أَلَمَّا عَلَى الرَّبْعِ الْقَدِيمِ بَعَسَا  
كَأَنِّي أَنْادِي أَوْ أَكَلَمُ أَخْرَسَا  
فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الدَّارِ فِيهَا كَعَهْدِنَا  
وَجِئْتُ مَقِيلًا عَنْهُمْ وَمُعْرَسَا  
فَلَا تُتَكْرَوْنِي إِنِّي أَنَا ذَاكُمْ  
لِيَالِي حَلِّ الْحَيِّ غَوَلاً فَالْعَسَا

والمقدمة ذات صلة بموضوع القصيدة، أراد الشاعر فيها أن يبين أنه أصبح بعيداً عن دياره، غريباً عن أهله وقومه، في مواضع لا يعرفه أحد، ولا يعرفهم، ولا يجد فيهم من يواسيه، ويخفف من آلامه وأوجاعه، ولذلك كان انتقاله إلى ذكر مرضه انتقالاً طبيعياً مهدت له هذه المقدمة، فهو يتحدث عن داء فيه منها يمنعه النوم، ويدفعه إلى السهر، فلا ينام منه شيئاً إلا أن يُكَبَّ<sup>(١)</sup> فينعس. ومع ظلمة الليل يتذكر داءه القديم ويخشى أن يصاب بنكسة<sup>(٢)</sup> يعاوده فيها هذا المرض، ويبدو أن امرأ القيس أصيب في هذه الديار بداء ذكر شيئاً من أعراضه - فيما يلي من أبيات - يختلف عن دائه القديم، الذي عاوده كذكرى مع الليل، وهو الوقت الذي ينفرد فيه الإنسان بنفسه، ويتذكر همومه وآلامه. ويظهر أن في هذين البيتين فصلاً بين نوعين من الداء الذي أصيب به شاعرنا، داء جديد أصيب به في ديار الروم، وداء قديم أصيب به في دياره، وأن الداء الجديد كان وراء موته، ولكن لا مانع من التأويل أنه بعد أن تردت صحته وصار إلى حالة من البؤس والعجز عاوده مرضه القديم فاجتمع الاثنان، فكانت نهايته بهما.

(١) الإكباب: ملازمة الشيء مع انعطافٍ عليه وانحناء.

(٢) نُكِسَ الرجل: إذا ضعف وعجز.

فإِذَا تَرَيْتَنِي لَا أَعْمَضُ سَاعَةً      مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ أُكَبَّ فَأَنْعَسَا  
تَأْوِبَتَنِي دَائِي الْقَدِيمُ فَعَلَسَا      أَحَازِرُ أَنْ يَرْتَدَّ دَائِي فَأَنْكَسَا

ومع إحساس الشاعر بالعجز والضعف يفرّج عن نفسه ويخفف من مصابه باستعادة ذكرياته أيام الشباب والقوة، فيتبادر إلى ذهنه الأعمال التي قام بها وهو سليم معافى، فما أكثر ما أنجد مكروباً، عطف من ورائه وطاعن عنه أصحاب الخيل - وهو هارب منهزم - حتى أفلت منهم، وما أكثر الأيام التي كان يُعنى فيها بنفسه مرجلاً شعره، فيبدو شاباً ناعماً حبيباً إلى الصبايا، يشدّهن صوته، فيرجعن إليه حباً وكلفاً به، كما ترجع النوق الفتية إلى الفحل. ولكنه اليوم غيره بالأمس فقد قلّ ماله وشاب شعره وتقوَّس ظهره، وهذه أمارات الكبر وعلامات الهرم تنفر النساء منه، ومن أي إنسان، على أن امرأ القيس إذا لجأ إلى التعميم كان كلامه حكماً وأمثالاً<sup>(١)</sup>.

فِيَا رَبِّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وِرَاءَهُ      وَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنْفَسَا  
وَيَا رَبِّ يَوْمٍ قَدْ أَرُوخُ مَرْجَلًا      حَبِيبًا إِلَى الْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ أَمَلَسَا  
يِرْعَنُ إِلَى صَوْتِي إِذَا مَا سَمِعْتَهُ      كَمَا تَرَعَوِي عَيْطٌ إِلَى صَوْتِ أَعْيَسَا  
أَرَاهُنَّ لَا يُحِبُّنَّ مَنْ قَلَّ مَالُهُ      وَلَا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا

ويعود الشاعر بعد ذلك إلى مرضه، ويبدو أنه كان يأمل البرء منه ولكنه طال واشتدّ عليه في تلك الأونة، فهو لا يخشى أن تقسو عليه الحياة، حتى ولو ضعف وشقَّ<sup>(٢)</sup> عليه المرض بحيث يعجز معه عن ارتداء ثيابه بنفسه، وأسوأ ما

(١) الشوامخ امرؤ القيس: ٢٠.

(٢) أي ثقّل عليه.

يمرّ عليه في مرضه أن نفسه لا تخرج مرّة واحدة، ولكنها تموت شيئاً بعد شيء، وكأنها مؤلّفة من عدة أنفس تموت الواحدة منها تلو الأخرى، وفي ذلك أبرع تصوير لطول عذاب النفس في مرض الموت<sup>(١)</sup>. لقد بدّل بصحته مرضاً، وتناثرت القروح على جسده، ولعل ما به من شدة الحال والبلاء عوض من الموت أو بدّل منه. انتقلت عدوى هذا المرض إليه من رجل يدعى الطّمّاح، كان أصيب بداء تأثر به امرؤ القيس أشدّ تأثر حتى قضى عليه.

ورغم ما لحق به من عناء السفر، وقسوة المرض، وتغيّر الحال، فإنه يتعلّق بالأمل في أن يعقب الشدّة رخاء، والفقير غنى، والشيب عمراً ومستمتع.

وما خفتُ تبرّيحَ الحياة كما أرى	تضيقُ ذراعي أن أقومَ فألبسنا
فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعاً	ولكنّها نفسٌ تساقطُ أنفساً
وبدلتُ قرحاً دامياً بعد صحّة	لعلّ مَنايانا تحوّلن أبوساً
لقد طمّح الطّمّاح من بُعد أرضه	ليلبسني من دائه ما تلبّسنا
ألا إنّ بُعدَ العذم للمرءِ قنوة	وبعد المشيب طولُ عمُرٍ وملبّسنا

والقصيدة الثالثة التي تتصل برحلة امرئ القيس هي القصيدة التاسعة في الديوان<sup>(٢)</sup>، وهي أقصر من الأولى وأطول من الثانية، عدد أبياتها سبعة عشر بيتاً، ويبدو منها أنه قالها في أثناء عودته إلى بلاده لما ثقل واشتدّ عليه

(١) المرجع السابق: ٢٠.

(٢) ص: ٨٩-٩٣، وهي التاسعة في مخطوطة الأعم الشنتمري، والثامنة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي على ابن الأعرابي من رواية المفضل)، والحادية عشرة في مخطوطة السكري، والعاشر في مخطوطة البطليوسي، والثانية والخمسون في مخطوطة ابن النحاس، والثالثة والثلاثون في مخطوطة أبي سهل.

المرض<sup>(١)</sup>. بدأها بمقدمة طليية قصيرة يدعو فيها رفيقيه إلى الوقوف في ديار محبوبته، والبكاء عليها، والتعرف إليها، فقد تغيرت معالمها ودرست آثارها. تعاورتها السنون، وبعُد أهلها بالأنيس حتى تغيرت رسومها وعفت آياتها، فأصبحت كالكتاب خفاء ودقة. تذكره - هذه الرسوم - بالحي مجتمعين زمن المرتبع، وتهيج بقايا ألم في الفؤاد لم يستطع إخفاءه، فتسيل دموعه سيلاناً يبيل رداءه، كما يسيل الماء من مزادة<sup>(٢)</sup> ذات خروق ورقع.

قفا نَبكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبِ وَعِرْقَانِ	وَرَسَمِ عَقَبَتْ آيَاتُهُ مِنْذُ أَرْمَانِ
أَنْتِ حَجَجٌ بَعْدِي عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ	كخَطِّ زُبُورٍ فِي مَصَاحِفِ رُهْبَانِ
ذَكَرْتُ بِهَا الْحَيَّ الْجَمِيعَ فَهَيَّجَتْ	عَقَابِيلَ سُقْمٍ مِنْ ضَمِيرِ وَأَشْجَانِ
فَسَحَّتْ دُمُوعِي فِي الرِّدَاءِ كَأَنَّهَا	كُلِّي مِنْ شَعِيبِ ذَاتِ سَحٍّ وَتَهْتَانِ

وانتقل من هذه المقدمة إلى وصف حاله مريضاً يحمل على سرير، يحمله جابر بن حنّي التغلبي<sup>(٣)</sup> في رحالته<sup>(٤)</sup>، قد ذوى جسمه، واتسعت عليه ثيابه، فهي تضطرب لاستقبالها الريح وتحريكها لها. وفي مثل هذه الحالة من الضعف والعجز يفسح لخياله مجالاً للعودة به إلى الماضي، يسترجع به ذكرياته، وأيام شبابه وفتوته، فكم محصور رجع إليه وقد أحاط به العدو، وقاتل عنه واستنقذه،

(١) شعراء النصرانية ١: ٦٦ ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي في مناسبة القصيدة: أنه أنشدها في طريقه إلى قيصر وكان أصابه مرض، وذكر الطاهر أحمد مكي (امرو القيس حياته وشعره: ٩٩) أنه يبدو من جوّ هذه القصيدة أنها كانت تالية في الخلق للقصيدة الأولى.

(٢) قرية الماء.

(٣) في ديوان امرئ القيس: ٩٠ كان جابر بن حنّي وعمرو بن قميئة يجملانته، وفي الشعر والشعراء: ٥٣ أن جابر بن حنّي التغلبي هو الذي كان يحمله.

(٤) الرحالة: خشيات كان يُحمل عليها امرؤ القيس وكان مريضاً، وهي الحراج.

وأسير فداه بماله فحلّ وثاقه وسرح، ولو كان أسيره منّ عليه وأطلقه، وأصدقاء له أيقظهم مبكرين، فقاموا وهم بين عاثٍ<sup>(١)</sup> ونشوان<sup>(٢)</sup>، وأرض واسعة تتخرق فيها الرياح قطعها على ناقة قوية الخلق، لينة المشي، مذعان<sup>(٣)</sup>، وسهول أصابتها سحب قوية، شديدة الصوت، فأعطت نباتاً مختلف الألوان كألوان الفنا<sup>(٤)</sup>، هبطها على فرس ضخم كهيكل النصارى، يعطيك ما عنده من الجري قبل أن تكلفه ذلك وتساله إياه.

فإمّا ترئني في رحالة جابرٍ	على حرج كالقمر تحفق أكفاني
فيا ربّ مكروب كررت وراءه	وعان فككت الغلّ عنه فقداني
وفتيان صدق بعثت بسحرة	فقساموا جميعاً بين عاثٍ ونشوانٍ
وخرق بعيد قد قطعت نياطه	على ذات لوث سهوة المشي مذعانٍ
وغيث كالوان الفنا قد هبطته	تعاور فيه كل أوطف حنانٍ
على هيكل يعطيك قبل سؤاله	أفانين جري غير كز ولا وانٍ

ثم يأخذ في وصف الحصان - إلى نهاية القصيدة - بأبيات لا تعكس من واقع الرحلة شيئاً، ولا تمت إليها بصلة<sup>(٥)</sup>.

"يتبع في القسم الثاني"

(١) العاثي: المتناول للشيء، وكثر ذلك في كلامهم حتى استعملوه في الفساد، وأراد أنه لما

أثارهم من نومهم تناول هذا ثوبه ليلبسه، أو ناول غيره وهو كالسكران من النعاس.

(٢) نشوان: سكران.

(٣) المذعان: المذلة المطاوعة.

(٤) الفنا: عنب الثعلب، وقيل: هو نبت يشبهه.

(٥) انظر امرؤ القيس حياته وشعره: ١٠٠.